في القصة الإسلامية

مع قصة
«عمر يظهر في القدس»
للدكتور نجيب الكيلاني

قليلة تلك الآثار الأدبية التي استطاعت أن تأخذ مكانها في عالم الأدب المعاصر، وتبرز بسماتها الأصيلة مع تميزها الإسلامي الذي يعبر عن تصور إسلامي واضح، ونهج سليم، وهي في الوقت ذاته تدخل معترك الحياة المعاصرة لتعالج قضايا الواقع، ومشكلات الإنسان من خلال المنظار الإسلامي الصحيح.

وتبرز لنا قصص الدكتور نجيب الكيلاني كواحدة من هذه الآثار، ويبرز - هو - كواحد من رواد القصة الإسلامية، بموضوعاتها، وفنيتها، ووضوحها، وتميزها، لا سيما في قصصه الأخيرة: نور الله - قاتل حمزة - دم لفطيرة صهيون - عذراء جاكرتا - ليالي تركستان - عمالقة الشمال - حبيبي رمضان - عمر يظهر في القدس[1].

هذا الإنتاج الغزير يحتاج إلى أقلام الدارسين، لوصفه، وتحليله، وتقويمه، والحكم عليه، بغية وضعه في موضعه المناسب، وتقديره حق قدره، لأن ذلك يسهم في رسم الطريق لمنهج الأدب الإسلامي عامة، وللقصة الإسلامية خاصة.

---

(١) يبقى هذا الحكم قابلاً للمناقشة. ومع الإكبار لموهبة الدكتور نجيب، فإن بعض مضامينه تحتاج إلى نقاش، ولا سيما في القصص الحديثة (حبيبي رمضان - عذراء جاكرتا - ليالي تركستان وغيرها).

ولا شك في أصالة الفن الذي يمارسه الدكتور الفنان، يبدو من خلال إنتاجه الغزير الذي جاوز الثلاثين من المؤلفات ما بين شعر وقصة ومسرح، وهو شاهد على قدرة كاتبنا ـ الطبيب ـ الأدبية، ورسوخ قدمه في هذا الفن، وأصالته في تناول موضوعاته وطرح أفكاره، وتنوع إنتاجه. ويبدو ذلك من خلال وضوحٍ وبساطةٍ، وعفويةٍ، تأسر القارىء وتمتعه بآن واحد.

ولا ننسى أن الفنان المسلم يجابه صعوبات وعوائق فائقة، ويحارب على جبهات متعددة، وقد يمضي إلى ربه شهيداً في جهاده المقدس من أجل الكلمة الشريفة التي تحمل الحق والخير والجمال للإنسان. لذا يستحق أن يُعْطَى شيئاً من التقدير والرعاية، من خلال تقويم أدبه ودراسته ليستمر في العطاء ويثبت في مجالات الصراع المحتدم.

فإذا تغافل النقاد ـ عمداً أو بدون عمد ـ عن الآثار الإسلامية، بغية طمسها، والحكم عليها بالفناء والموت، فعلى الأقلام الواعية المخلصة مجابهة هذا الكيد، بإيجابية واعية، وتقويم عادل من خلال دراسة هذه الآثار ووضعها في مكانها الحقيقي.

* * *

إن أبرز ما يلفت النظر في مؤلفات الدكتور نجيب قصته الفريدة (عمر يظهر في القدس) إذ تناول فيها موضوعاً طريفاً وفريداً، فيه جرأة ووضوح، مما يجعلها تجربة فريدة في الأدب الإسلامي المعاصر.

وليس هيناً على الأديب أن يتناول موضوعاً يمزج فيه بين الماضي والحاضر، بل يصل بينهما حتى يجعلهما موضوعاً واحداً، باذلاً في ذلك طاقة من الجهد والإبداع والأصالة، مما يجعله أهلاً للتقدير والدراسة. لقد كان الموضوع يدور حول النكسة التي أصابت العالم العربي، بل العالم الإسلامي عام ١٩٦٧ م، عندما احتلت الصهيونية أراضي إسلامية عربية جديدة، واستولت على القدس، وداست فيها كرامة الإنسان، وشوهت معالم

تاريخنا المجيد، وطعنت بذلك العالم الإسلامي الذي ظل غافلاً أو متغافلاً طوال هذا القرن رغم هذه الأحداث الدامية.

في هذا الجو الخانق، في مرحلة التمزق والذل والقلق، يبحث كاتبنا بجدية مخلصة عن الأسباب الحقيقية لكل ما أصاب العالم العربي والإسلامي من أزمات ونكبات، ويعطينا في الفصل الأول صورة عن الأثر الذي تركته هذه النكبة في نفس المسلم: «الحقيقة أنني أشعر بحزن ثقيل ينوء به قلبي، وبمرارة عارمة تشبع بها روحي. ويتملكني يأس معاند، لا يفتأ يطالعني من وقت لآخر... نحن جيل الضياع والأحزان يا أماه، أيام الذل: مزرعة خصبة للآلام والأحزان، وسنوات الهوان الطويلة لم تنفجر عن فجر يبدد الظلام والوجوم، وتمادي العدو في طغيانه وعبثه وغروره دون أن نستطيع الثأر منه، يشعرني بعجز قاتل، ويعصف بالأحلام الخضراء».

وفي هذا الجو الذي سيطر على العالم العربي، يظهر عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - على مستوى الأحداث ليكشف للمجتمع العربي والإسلامي حقيقة الصراع القائم في عصرنا، ويكشف له عن أسباب الهزيمة التي ظلّت تخيم على أرض المسلمين ما يقارب القرن، وآخرها هذه الهزيمة[1].

ومن البداية يؤكد لنا الكاتب ملامح الشخصية المشرقة المؤمنة - شخصية عمر - بعيدة عن الزيف والقلق والخوف والتردد والشعور بالهزيمة والذل: «تصدر الكلمات من بين شفتيه قوية رصينة، تفوح منها رائحة

---

(١) لسنا هنا في موضع الحكم على صحة مثل هذا العمل من الناحية الفقهية أو عدم صحته، فالأمر يحتاج إلى بحث من أصحاب الاختصاص. وليس مهماً أن تكون الشخصية الرمزية عمر، بل يمكن أن يكون أي مسلم ملتزم في هذا الموضع، وإن كانت القصة تفقد هذا المزج بين الماضي والحاضر، وحين يسوق الكاتب هذا الحضور التاريخي عن طريق الحلم، يحقّق المسوِّغ لاستحضار شخصية الفاروق من ناحية، ويظلِّل الحقيقة بإيحاء شفاف بأنها أشبه ما تكون بالحلم، لفداحة ما جرى.

الصدق والجلال، بريئة من الشك والريبة، خالصة من كل بهتان» وهذا ما يريده الكاتب من استحضار شخصية عمر في هذا العصر.

وعندما يدور الحوار بين عمر وبين الشخصية التي رافقته، يصور لنا الكاتب على لسان هذه الشخصية عالمنا ومجتمعنا الإسلامي فيقول: «لك الله يا عمر!! لقد أُبْطِلَتِ الحدود، والخمرُ تباع في كل مكان، الحكام يشربونها في الحفلات العامة وفي بيوتهم، يتساقونها علانية، وكأنهم يتساقون أقداحاً من القهوة، وبيوتُ الدعارة تأخذ تراخيص من الحكومة، ويحميها القانون، لقد أصبح للفساد قوانين تنظِّمه وترعاه».

وبعد أن يسمع عمر محدثه، ويرى في سلوكه وحديثه صورة لهذا المجتمع يقول له: «الآن عرفت سبب انتصار اليهود عليكم، ونشرهم الفجور بين ظهرانيكم، الخوفُ يلِدُ الرذيلة، والهزيمةُ تمسخُ ضعفاءَ الإيمان، وأنتمُ جياع برغم رصيدكم الضخم من الزاد، تدقُّون الأبواب الصَّلدة في بَلَه، ولو بحثتم لتفتَّح أمامكم باب النعيم الأبدي:

«كالعِيسِ في البيداء يقتلُها الظَّما والماءُ فوق ظهورِها محمولُ»

«... إن من يتوعَّد التقاطَ الفتات من موائد الأغنياء تسحره كلماتهم وفكرهم وسلوكهم، ويحاول أن يقلدهم، وفي التقليد الأعمى فناء العقل والروح، وهكذا يتحول السادة إلى عبيد، وإذا أردت أن تعرف كيف يصبح العبيد سادة فتذكر قصة أخي بلال بن رباح، لقد سَخِر من نتن الفكر لدى أساطين الكفر في مكة... ضربوه.... عذبوه... لكنه لم ينحن ليلتقط الفتات... أتفهمني؟؟».

ولكي يستطيع الكاتب بعث الشخصية المسلمة في هذه الأحداث، تخيل لنا ـ من خلال الحلم ـ عمر يظهر في القدس، ينطق بلسانه، ويتصرف بتصرفاته. إنه يصور لنا بقصته هذه حقيقة العالم الإسلامي كله.

فالقدس ليست مدينة واحدة، وإن كان لها من القداسة ما لها، ولكن

الكاتب أراد أن تكون رمزاً لعالمنا العربي والإسلامي الذي يستبيحه المغيرون بصور شتى. قد لا نهتم إلا للصورة العسكرية منها بينما نترامى على أقدام الغزاة الحاملين للدعارة، والفساد، والإلحاد، ونكون لهم عبيداً وجنوداً، فنصنع المهزلة البشعة عندما نغضب لحق استعمل العدو قوته في سلبه فقهرنا، بينما نسكت عن قهره لنا في كل شيء: في الخلق والسلوك والثقافة والعقيدة.

لذا أراد الكاتب أن تكون القدس صورة للعالم العربي والإسلامي من ناحية، ورمزاً لكل مقدساتنا التي استباحها اليهود من ناحية أخرى.

والصورة الدامية التي ظهرت على مسرحها هي صورة لكثير من الحقائق الدامية التي تجري هنا وهناك على امتداد العالم الإسلامي كله، فضلاً عن مكانة القدس، القبلة الأولى للمسلمين، ومسرى النبيّ المرسل محمد صلى الله عليه وسلم.

والشخصيات التي ظهرت في القصة هي نماذج من مجتمعنا، فالمسلم المحافظ على قيمه الإسلامية: مهزوم داخلياً، قلق، خائف، مهزوز الفكر ـ أحياناً ـ ضعيف الإيمان، لأنه لا يعرف من إسلامه غير المظهر والشعائر، ولا يفهم من إيمانه غير النطق بالشهادتين، وينسى مدلول الإسلام والإيمان في عالم الواقع والسلوك والفكر والجهاد، كما فهمها المسلمون الحقيقيون عبر قرون عديدة، فحوَّلوا الدنيا إلى مجتمع كريم، وأناخوا غطرسة الكفر في دولتيه العظيمتين ـ الروم والفرس ـ حتى تحطمتا تحت أقدام المجاهدين، وصدحت كلمة الله قوية هنا وهناك.

وكذلك فهناك الإنسان العادي الذي تخلَّى عن قيمه، وراح يجري وراء ملذاته، وتفسخت شخصيته وقيمه، وبدأ يتبجح بالنتن الجديد تحت أسماء براقة.

وهناك الذي فتنته المادة في عصر العلم، فظن أنها كل شيء، فأنكر حقيقة الوجود، وخالق الوجود، وبدأ يفلسف الحياة بطريقة آلية بلهاء، تمسخ الإنسان، وتطحنه بين أسنان الآلة الجامدة.

وهناك الصُّوَرُ الداعرة التي يقوم على رأسها، وينفخ بنارها اليهود في كل مكان، ويحملونها شعاراً ووسيلة، يغرون الشعوب، ويلوحون بها للغرائز، ويستخدمونها وسيلة للسيطرة على كنوز العالم ومراكز القوة فيه.

ولكن هذه الشخصيات كلها لا تطمس حقائق الوجود، وحقائق الحياة الإنسانية، وهي ـ رغم واقعها المظلم ـ تملك الفطرة التي يمكن استنقاذها إذا خوطبت بلغتها الواضحة الحانية، لغة الوجود كله، فتستوي هذه الفطرة، وتجد ملجأها وملاذها وطمأنينتها وذاتها في ظل الخالق الرحيم، وشريعته الكاملة.

أما شخصية عمر في مواجهة هذا الواقع ـ من الناس والأحداث ـ فهي شخصية المسلم الحقيقي: بوضوحه وإشراقه، بإيمانه الصلب، وإسلامه الواضح المميّز، بوعيه وإدراكه لما وراء هذه المظاهر، بإخلاصه، وصفائه، بقوته وجرأته، باستقامته وعدله، بوطنيته وتضحيته.

ولكي يقرِّب لنا الكاتب صورة المسلم، ويجعلها واقعية، لها كل ملامح الحياة الحقيقة الملموسة، وبغية إزالة الغرابة والخيال عنها، لجأ إلى المزج بين واقع العصر، وواقع التاريخ، ومن الطرافة والجرأة ـ معاً ـ أن يلجأ الكاتب إلى الخيال ليلبسه أثواب الحقيقة عندما استنطق التاريخ في أجلى صورة، وأنصع بيان. واستدعى من أجل ذلك بعث الشخصية الرائعة التي أعطت أروع مثل عن المسلم وهي شخصية الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ.

وكان هذا لدواع عدة منها:

١ ـ لأنها شخصية واقعية لا يستطيع عدو ـ فضلاً عن الصديق ـ أن

يماري في نصاعتها، وحقيقتها، واستقامتها، وعبقريتها، وسعة إدراكها للأمور.

٢ ـ لأنها شخصية تحوز على كل الصفات المطلوبة من المسلم، وتحوز على الإعجاب، وله في نفوس المسلمين ذلك القدر الكبير من شعور الحب والاعتراف بالإيمان والعبقرية والصدق والأمانة والوعي.

٣ ـ إن شخصية عمر ـ رضي الله عنه ـ بوضوحها ومميزاتها الإيمانية والعملية ـ تستطيع أن تعطي الصورة المتميزة الفريدة للمسلم في أي عصر. لهذا عمل الكاتب على بعث شخصيته في قلب هذه الأحداث العاصفة. ووسط هذا العصر الذي «يبدو ـ فيه ـ أن زعماء العالم اليوم لا يستغلون ما وهبهم الله من قدرات إلا لجركم إلى الانحراف والخنوع والغرور، القوة في أيديكم وسيلة لقهر المساكين، والرفاهية تخمة وأدواء، والحرية دعارة، والعلم تحكيم للأنانية على مستوى الفرد والدولة»[1].

٤ ـ وكذلك فإن عمر هو الذي حضر فتح القدس واستلم مفتاحها ولهذا ارتبط وضعها الإسلامي باسم الخليفة الفاروق. واختياره لهذه القصة له صلة بهذه الواقعة التاريخية.

وعمر هنا ليس شخصية تاريخية مضت وانقضى عصرها، بل هو المسلم الحقيقي في كل عصر، المسلم الذي يعاني هذه الأزمات، ويكتوي بنار الغربة والقهر والحرب، ويجاهد بإخلاص حاملاً الحب والخير للإنسان في هذا العالم، لهذا قال على لسان بطل القصة في الصفحة (٢٥٨) عندما سأله المحقق عن المكان الذي قصده أمير المؤمنين فقال: «إنه في كل مكان، إنه ليس مجرد جسد، هو فكر وعقيدة، إنه إيمان مستحيل أن تقبضوا عليه... وإن أردتم فاقبضوا على كل رجل ذي قلب مؤمن... هم... هو... وهو هم».

---

(١) القصة ص (٩٦).

وهذا ما قصده بالذات كاتبنا، فعمر هو المسلم الحقيقي، الغريب، المتميز المخلص، الذي يتفاعل مع الحياة بإيجابية، يواجهها على أساس العقيدة دون أن تذيبه أو تحرقه مفاجآت العصر ومغرياته ومخوفاته. وعمر هو المسلم صاحب العقيدة، الذي لا يتنازل عن عقيدته مهما بلغت المآسي والتضحيات، المحب للإنسان، لشعبه، لوطنه، يحمل النور للناس، وهو قوي بإيمانه، إيجابي بعمله، مخلص في سلوكه وعمله.

«الكلمات وحدها لا تجدي كثيراً، يجب أن يحملها فكر طاهر، وقلب مؤمن لا يرهب إلا الله! يجب أن تترجم إلى سلوك، إلى حياة مميزة، هذا أفعل وأقوى، أعرف أن عصركم عصر القوة، لكن ثقوا يا أبنائي أن قلب المؤمن وفكره الحر الشجاع، وروحه الطاهرة ستمدكم بقوة لا مثيل لها، القوة ليست الحديد والنار وحدهما، إنهما مظهران ماديان، هناك القوة الروحية، ستحتاجون الحديد والنار ـ لا شك ـ كما فعل نبيكم ـ صلوات الله عليه ـ القوة المادية وحدها هراء وإلى زوال وقد يملكها الكثيرون، ولست حالماً ولا واهماً، ولا أستلهم كلمات من شطحات الخيال والهذيان، بل في يدي الدليل، هكذا انتصر نبيكم، اذكروا «بدر» و «أحد» و «الخندق» و «حنين». كان لكل معركة منها سمة خاصة بها وانتصرنا. لا تقولوا كما يقول المغرورون: هذا عصر مضى. ذاك قول باطل، حيث توجد المبادىء متمثلة في رجال مؤمنين لا يخافون إلا الله وحده، يوجد النصر، وتشرق شمس العدالة والكرامة ويسعد الناس ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله»[1].

وبعد أن أعطى ملامح الشخصية الإسلامية في إطار هذا العصر من خلال إحياء شخصية عمر، بدأ يستعرض صوراً من الأزمة، وألواناً من عذابات الإنسان والحياة في القدس ـ رمز القداسة والخير ـ التي يسكنها اليهود، ويسوسون الحياة فيها.

---

(١) ص (١٥٠ ـ ١٥١).

ولعل كاتبنا يريد أن يشير بذلك إلى دور اليهود في طمس معالم الحق والخير في العالم، ومحاربة العقيدة والأخلاق، وإفساد الحياة كلها. ما دامت القدس رمزاً للخير، ورمزاً لعالمنا الإسلامي كله، ورمزاً لمقدساتنا التي نزلت بشأنها نصوص في الكتاب والسنة.

ثم يصف لنا هذا العصر، فيكشف ـ من خلاله ـ عن الزيف والخداع والتحريف والإفساد، ويضع أيدينا على عوراتنا التي نخر فيها التشويه والفساد، حتى بتنا نأنس بهذه الصورة المشوهة، ونركن إلى التحذير، ونستذل أمام القهر، ونخدع بالدعايات.

ومفاهيم الحياة تغيرت: الحرية، العدالة، الحب، الخير... مما جعل المسلمين يتخلون عن دورهم في الحياة، لهذا وصف هذا الجيل «جيل الهواء والسخريات والعبث»[1]، والجاهلية: «عادت كأعنف وأخبث ما يمكن»[2].

والمسلمون ـ مع هذا ـ ساكتون خانعون. لأن المسلم الحقيقي أصبح غريباً مطارداً، وأضحى بينه وبين المسلم المعاصر فرق كبير، لأن المسلم الحقيقي يرى إسلامه سلوكاً لا يتنازل عنه، لأنه لا يتنازل عن إيمانه وعقيدته. أما مسلم اليوم فيرى إسلامه تقليداً ومظهراً وفكراً خاوياً، لذا فهو يناقش ويساوم[3] واستطاع اليهود أن يطبعوا العصر بطابعهم، ويسوقونه في دروب القهر والزيف والضلال والمكيدة. وهذا هو دورهم في التاريخ، فهم أهل الدعارة والاستغلال ومحاربة شريعة الله.

ولا غرابة بعدها أن تحل الهزيمة وأسبابها كما يراها عمر: «الآن عرفت سبب انتصار اليهود عليكم، ونشرهم الفجور بين ظهرانيكم، الخوف

---

(١) ص ٢٣.

(٢) ص ٢٤.

(٣) موقف عمر من منظر اليهودي ص ٢٠ ـ ٢١.

يلد الرذيلة، والهزيمة تمسخ ضعفاء الإيمان، أنتم جياع برغم رصيدكم الضخم من الزاد، تدقُّون الأبواب الصلدة في بَلَه، ولو بحثتم عن المفاتيح لتفتح أمامكم باب النعيم الأبدي». . . «إن من يتوعد التقاط الفتات من موائد الأغنياء تسحره كلماتهم وفكرهم وسلوكهم ويحاول أن يقلدهم». «وفي التقليد الأعمى فناء العقل والروح، وهكذا يتحول السادة إلى عبيد، وإذا أردْتَ أن تعرفَ كيف يصبح العبيدُ سادةً، فتذكر قصة أخي بلال بن رباح، لقد سخر من نَتن الفكر لدى أساطين الكفر في مكة، ضربوه. . . عذبوه. . . لكنه لم ينْحَنِ ليلتقطَ الفُتات»[1].

ولا يترك هذه المظاهر المرضية تمر عرضاً، بل يلح عليها أحياناً، إذ يرى أن المسلمين في العالم الإسلامي يبلغون مئات الملايين، ويملكون أغنى الأراضي والإمكانات، ومع ذلك فهم ضعفاء متخلفون، يتغلب عليهم حفنة قذرة من اليهود، فما هو السبب؟ وكيف فقد المسلم قدرته على الثبات والتفوق والنجاح والانتصار؟

إن الأمر واضح لكل ذي عينين مبصرتين. لهذا نراه يقول على لسان عمر عندما غادر المسجد ورأى جموع المصلين الذين خرجوا من المسجد كما دخلوا: «لكأنما يفرّون من وباء، أخشى أن تكونَ صلاتُهم مجردَ حركات ميتة لا روحَ فيها، أين الخشوعُ والقلوب المعلقة بالله؟ الوعاء خال من أي شراب، الشكل وحده هو ما تهتمون به، عبادتُكُمْ بلا جوهر، أخشى أن يكونَ الأمر كذلك»[2].

أو يزيد الأمر وضوحاً حينما يقول: «إنكم مسلمون لكن بأخلاق اليهود»[3]. ثم قال بمرارة: «أنتم أكذوبة التاريخ: حياتكم وفكركم،

---

(١) ص ٢٥.

(٢) ص ٣٤.

(٣) ص ٣٥.

وعملكم زيف لا مثيل له، وجودكم مستعار. أين المسلم؟ لا بد أن نبحث عنه»[1]. ويعجب عمر ـ وهو المسلم الحقيقي ـ عندما يرى الحكام المسلمين يسخِّرون الدين لمصالحهم بدلاً من أن يكونوا أداة منفذة لمقتضيات الإيمان والشرع، ويبتغون مرضاة الله وحده، فيقول لهم «حتى في بلاد المسلمين يحدث شيء كهذا؟» ما يرضي الحكام فهو من الدين، وما يتعارض مع وجهة نظرهم فهو كفر وإلحاد. لقد صنع لنا الذل ديناً جديداً من الفكرِ الضرير».

وفي هذا الواقع المؤلم تتضاعف مسؤولية العلماء ـ وهم ورثة الأنبياء ـ ولكم رأينا في تاريخنا علماً بارزاً من العلماء الأتقياء العاملين، الذين يحوّلون مسيرة التاريخ، ويقوِّمون اعوجاج الأمة، وتنخلع لهيبتهم قلوب الطغاة، ويخضع لسلطانهم الملوك والأمراء والحكام.

ولكن الواقع ـ هنا أيضاً ـ أشد إيلاماً ومرارة، فلقد افتقدنا أمثال هؤلاء، وصعد المنابر رجلُ الدين بصورته الأوروبية، ليأخذ دوره المرسوم، ويقوم بمراسيم المهنة والمهمة الموكولة له، فيقول لهم: «الدين ليس مجموعة من الكتب تحفظونها عن ظهر قلب، نحن موتى! لقد خسرنا كل شيء: الدين والدنيا، والملايين منا ركعت في ذلة تستجدي انسحاب الدولة الصغيرة برغم إحاطتنا بجميع علوم الدين. إن التجربة أقوى صفعة في وجه ادعاءاتنا وغرورنا. أنتم موظفون... أذناب... ولستم علماء دين»[2].

ثم يفضح أساليبهم: «تتخلَّفون دائماً... تركبون ذيل الموكب. وتُلبسون أي شعار جديد ثياباً مهلهلة تسمونها الدين، وتجيدون التأويل الكاذب لتَجْتَلِبُوا رِضى الحكام، في ذيل الموكب دائماً، لكنَّ العامة في

---

(١) ص ٣٦.
(٢) ص ١٣٥.

الشوارع سيبتهجون، سيتلقفون الحقيقة، ويتشرَّبون رحيقَها دون حذلقة، ولن يهابوا الموت، إن ظهور عمر خطر على إسرائيل، لكنه أشد خطراً على دنياكم المليئة بالكذب والخوف والنفاق، ولهذا تكرهون ظهوره»[1].

* * *

إن القصة كلها تريد أن تصور لنا الواقع، وتكشف عن حقائقه مهما كان مرّاً. إن تخلُّصنا من الهزيمة والمرض والتخلف لن يكون إلا بكشف الأدواء والأمراض بوعي وإخلاص، وبنظرة لا تخدعها المظاهر أو الحدود أو المادة، أو الدعايات، ولا تغشّها الطعوم الدانية مهما بدا مذاقها حلواً في حلوق المغرورين. لقد وضع الكاتب أيدينا على الجراح، والأمراض، وكشف أمام أعيننا شريحة من شرائح حياتنا العفنة.

إن إسلامنا قوي بمنطقه، بواقعيته، بحركيته، بإيجابيته، بخصائصه، بارتباطه الوثيق بفطرة الإنسان، بل بكونه رسالة السماء إلى الأرض.

وإن إسلامنا عزيز لأنه الحق من عند الله، ولكنه يحتاج إلى حملة أمناء، أوفياء، صادقين. يتحولون به إلى وقائع وأحداث، ومجاهدين، ومجتمع، ودعاة وعلماء، وحينها يرى الناس أنه الخير والطمأنينة والنصر وكلّ التقدم.

* * *

إن هذه القصة أعطت كثيراً، وكشفت بأسلوبها الآسر عن خبائث اليهود وزبانيتهم في الإفساد والتشويه والتحريف لكل قيمنا وتاريخنا وسلوكنا. وكشفت عن صور من مآسينا وأمراضنا، وصور من الكيد والقهر للمسلم الغريب في هذا العصر على يد المسخرين والممسوخين لتنفيذ المخطط اليهودي في العالم الإسلامي كله.

---

(١) ص ١٣٦.

وعرضت هذه القصة الرائدة لقضية الإنسان في هذا العصر الذي أُهينت كرامته، وطُعِنَتْ مقدساته، وسُلبت حريته. وهي مليئة بالقضايا الكثيرة التي يعاني منها الإنسان والمجتمع كله، ولا يسع الكاتب أن يستعرض جزئياتها. وما طرحه كاتبها من أشياء وأمور على أرض الواقع، ومن استقرائه للأحداث استطاع أن يُلمَّ بكثير منها، ويشير إلى الأهم منها. فهي بهذا تعد قصة رائدة في أسلوبها، وفكرتها، ومزجها بين الماضي والحاضر، والربط بينهما من خلال شخصية عمر، أو شخصية المؤمن بجوهرها السامي، وحقيقتها الرائعة، حين تظهر على مسرح الأحداث. ومثل هذه التجربة جديرة بالتقدير والإكبار، ولو أن الكاتب اضطر لوضع شخصية عمر في أحداث يومية مما يجعل بعض الناس يتحفظون منها، ويرون أن في ذلك إحراجاً، ولعمري فإن ما نقترفه كل يوم بحق ديننا أكثر تشويهاً من أية صورة رمزية نتوقف عندها.

إن كاتبنا الفنان قد دفع بفن القصة الإسلامية خطوات إلى الأمام، وفتح طريقاً بكراً، وأعطى نموذجاً رائعاً مهما كانت مخاوف الطريق أمام هذه التجربة.

وإن غزارة المادة في القصة تدل على سعة اطلاع الكاتب وقدرته على الاستفادة من الجزئيات، وجديته في طرح الموضوعات المهمة من خلال أحداث القصة.

ولعل كاتبنا يحسد على تمكنه من الحفاظ على أصول الفن رغم كثافة الأحداث والفكر الذي طرحه من خلالها.

ولا يسعني إلا تهنئة الدكتور نجيب الكيلاني على هذه القصة الجديدة التي فتحت أمام القصة الإسلامية طريقاً مليئاً بالثمار والطرافة والفائدة.

* * *

مع «روايات إسلامية معاصرة» للدكتور نجيب الكيلاني[1]

قلت في مقال سابق: إن الدكتور نجيب الكيلاني زود الأدب الإسلامي بعدد من رواياته الجديدة التي برز فيها التصور الإسلامي الواضح للحياة. وتميزت بالكلمة الطيبة والفن الصادق، والتصوير الموحي، واللمحات الذكية، وكان منها: «نور الله، دم لفطيرة صهيون، عمر يظهر في القدس، قاتل حمزة». أقول ذلك بعد أن رأيته يبدو أكثر وضوحاً وأصالة، وأكثر عمقاً وشاعرية، وأصدق تعبيراً وفناً في قصته السابقة.

واستطاع أن يتخلص أكثر مما سبق من التردد والتشتت بين التزام التصور الإسلامي في الأدب واسترضاء المشاعر أو التماس الرضى والقبول عند كثير من الناس[2].

ومرة أخرى لن أتناول هذه القصص المميزة بالدراسة والنقد، فلها موعد آخر ـ إن شاء الله ـ ولكنني سأسجل بعض الخواطر واللمحات عن

---

(١) هذا الموضوع نشر قبل أكثر من اثنتي عشرة سنة من نشره في هذا الكتاب، وإذا كنت قد كتبته بروح المرحلة التي كنت فيها، والحماسة التي طبعت اهتمامي بكل ما يمت إلى الأدب الإسلامي بصلة، فإن أساس الموضوع ما يزال قائماً وإن كنت أتوقف عند بعض التفصيلات التي سأكتب عنها ـ إن شاء الله ـ.

(٢) انظر مقال «مع ديوان ـ عصر الشهداء» المنشور في العدد السادس من السنة الرابعة عشرة بمجلة حضارة الإسلام، والذي مر في قسم الشعر في هذا الكتاب.

القصص الجديدة التي صدرت لكاتبنا الشاعر، فزادت من وضوح الصورة عن أدبه، وساهمت في ترسيخ المفهوم الإسلامي للأدب والحياة معاً، وأضافت رفداً جديداً لمكتبة الأدب الإسلامي المعاصر.

وبعد أن رأينا طغيان القصة التاريخية لدى أدبائنا الإسلاميين المعاصرين، بدأ عدد منهم يواجه الواقع بأدبه، ويخوض غمار التجربة الجديدة في الحياة متسلحاً بتصور واضح، وعقيدة راسخة ليكشف عن واقع العصر، ويبرز كثيراً من الحقائق التي حاولت الجاهلية الحديثة طمسها بما تملك من وسائل الإعلان والدعاية.

وإن من أهم الخصائص التي ينبغي أن يحرص عليها القصّاص المسلم، هي ربطه لأحداث القصة بالواقع دون إخلال بطبيعة الفن الذي يمارسه، وهذا الشرط لا يختلف مهما كان نوع القصة التي تكتب أو الموضوع الذي يطرح من خلالها: تاريخية أو اجتماعية، أو وطنية أو غير ذلك. فالقصة التاريخية لن تخرج عن كونها موعظة عابرة مكررة أو حكاية مسلية، أو واقعة مسرودة إذا حرص كاتبها على سرد التاريخ كتراث سالف مضى ودفن تحت أنقاض القرون الغابرة.

ولن تمس في نفس القارىء إلا المشاعر السطحية والتأثر العاجل إذا لم تتحول على يد الكاتب إلى فن يتفاعل مع الواقع أياً كان زمنها، ومهما كانت صور الواقع الذي كتبت من أجله.

إن الأحداث التاريخية الخالدة التي صنعت حضارة إنسانية رائعة، وبعثت روح الخير والعدل والحق والرفاه عند البشرية، وضمنت للإنسان كرامته وعزته وحريته بعد ذلٍّ وهوان.

إن هذه الأحداث حين تتحول إلى حكايات جامدة، أو أقاصيص للسمر، فإننا نكتب عليها شواهد العدم.

أما التاريخ الذي نريده من خلال فن القصة، هو التاريخ الحي الذي يتحول إلى دم ينبض بالحياة، ويتدفق بالتجربة، وإلى ضياءٍ يكشف أمامنا الطريق ويهدي الجيل إلى معالم الحق من جديد.

وهي لا تملك القيام بهذا الدور الذي نريده منها، ولا تتحول إلى نُسُغ يسقي الحاضر ويبعث المستقبل ما لم يتمكن كاتبها من إبرازها حية، قريبة من الواقع الذي نعيش، بل موائمة له، وكأنها أحداثنا نحن، نعيشها ونتأثّر منها ونؤثر فيها، حتى نحسَّ أن تلك الدماء التي نزفت هي دماؤنا التي تروي الأرض، وتهرق في سبيل الله.

والذي لا ريب فيه أن اختيار الأحداث، أولاً... واختيار الطريقة لسبكها وترابطها وتسلسلها، سيؤثران في تحقيق ما نريد. وهي بالتالي مهمة صعبة تدخل في مضمونها قدرة الفنان، وعمق إحساسه، وطريقة فهمه للواقع وعمق ثقافته أيضاً، ومدى إدراكه لحركة التاريخ وأحداثه، على ضوء العقيدة، وصحة نظرته للواقع ومناحيه المختلفة.

ولا يشذ عما قلناه ـ بمضمونه العام ـ أي نوع من أنواع القصص، فصفة الواقعية، بالمعنى الذي شرحناه، شرط مهم لنجاح القصة.

* * *

والأديب المسلم أمامه فسحة من الحياة واسعة، أمامه العالم كله، شرقه وغربه، شماله وجنوبه، ما دام قادراً على الاختيار، والعرض بأسلوبه الفني وحسه المرهف.

هذه الفسحة الواسعة من الحياة لا تتوافر لغير الأديب المسلم، لأنه يتناول بأدبه قضية الإنسان الذي يجاهد من أجل كرامته، ويرفض كل عبودية لغير الله ـ عز وجل ـ ويسعى للتحرر من قيود الجاهليات التي تحول دون تحقيق إنسانيته. ثم إنه سيظفر بعدد من الموضوعات المتنوعة على امتداد وطنه الإسلامي الكبير، لأن هذا الوطن يعاني شتى أنواع المحن

والمشكلات، ويرى مختلف أنواع البؤس والتخلف، وتعوزه أمهر أنواع المعالجات الذكية المخلصة.

وفي هذا السبيل سيرى أن قضية الإنسان واحدة، ما دام في ظل الله، وسيتعرض إلى واقع المسلم الذي يقف وحده ـ رمزاً للإنسان المكرم عند الله ـ يحمل راية الحق للإنسانية كلها، ويدفع عنها الضيم والأذى، ويكشف أمامها الطريق، ويوضح لها المعالم، ويبذل من أجلها أجلّ التضحيات.

وفي القصص الأخيرة التي كتبها الدكتور نجيب الكيلاني، نلمح صورة من هذه الواقعية المؤثرة، ونتعرف على لوحات من حياة المسلمين، ناطقة بدمائها وتضحياتها وآلامها.

وهي ـ كلها ـ ترمز لحاضر العالم الإسلامي ومشكلاته، وتعالج قضية الإنسان المسلم الذي يقف أمام الطغيان ليدافع عن حريته وكرامته ووجوده، ويحمي عقيدته التي تمثل هذه القيم كلها.

«ليالي تركستان ـ عذراء جاكرتا ـ عمالقة الشمال».

ثلاث قصص صدرت بوقت واحد، وتحت عنوان «روايات إسلامية معاصرة» وبحجم واحد تقريباً، إذ لا تتجاوز كل منها، مئة وسبعين صفحة. إن قارىء هذه القصص يستطيع أن يرى ذلك الخط الواضح الذي يربط بينها والروح التي تسري فيها جميعاً.

وهذه القصص الثلاث تبدو فيها ظاهرة الواقعية، لأنها تناولت أحداثاً تثير في ضمير المسلم كثيراً من الأفكار والمشكلات، وتضع أمامه عدداً من القضايا التي يعانيها على صعيد الفكر والواقع معاً.

ولقد حرص الكاتب على استقاء هذه الأحداث من ملاحظاته أو مشاهداته أو قراءاته كما بدت على أرض الواقع الحي، ونسج منها هذه القصص، فكانت ذات صلة بواقع المسلم في هذا العصر: واقع عقيدته ومجتمعه ووجوده وطريق جهاده ضد الجاهلية.

وكانت ذات صلة بواقع العالم الإسلامي وما يعانيه من صنوف الكيد.

ولم يخرج بها الكاتب عن أصول الفن القصصي في سبك الحوادث وترابطها ورسم الشخصيات وحركتها، وإبراز عنصر الصراع، وحرصه على التشويق معاً. وأكتفي هنا ببعض الملاحظات التي تجمع القصص الثلاث من غير تفصيل وتدقيق في جزئياتها وجميع مناحيها:

١ ـ كانت موضوعاتها وأحداثها تدور حول قضايا تهم واقع المسلم وتلمس أعمق أحاسيسه وتضع أصابعه على مكامن الخطر، وتفتح قلبه وبصيرته على حقيقة الصراع الذي يدور من حوله متخذاً أشكالاً مختلفة، ويهدف إلى غاية واحدة، ويسعى لحرب الإسلام وإطفاء نوره في كل مكان.

وكان اختياره للأحداث من أمكنة ثلاث ينحصر بينها العالم الإسلامي إذ كانت القصة الأولى والثانية تدور أحداثهما في الشمال والشرق للعالم الإسلامي «ليالي تركستان» و «عذراء جاكرتا»، بينما تدور أحداث الأخيرة في الجنوب الغربي «عمالقة الشمال» وهي بذلك تعطي دلالة مهمة على طبيعة الأحداث والصراعات المصطنعة في العالم الإسلامي. وهي بمجموعها تضع المسلم إزاء تحديات الجاهلية له وتجعل منه طرفاً تقابله مجموع الأطراف الأخرى موحدة في مواجهته والقضاء عليه.

٢ ـ إن القصص الثلاث تظهر دور الاستعمار والصهيونية والتبشير والاستشراق والجاسوسية والحركات الأخرى التي تظهر بأسماء براقة، وتتظاهر بادعاءات خادعة من التقدم والتطور والوطنية، فتبدو هنا على حقيقتها، وتنكشف غاياتها وتظهر نواياها من وراء ما تخفيه من حقد وطمع وتآمر على هذا العالم.

وهي ـ للوصول إلى غاياتها ـ تبتكر أساليب متنوعة، وتطور هذه الأساليب وتعطيها ألواناً وأصباغاً وأشكالاً تتآلف مع متطلبات المرحلة والبلد والظروف، ثم تُسَخِّر آخر ما وصل إليه التقدم العلمي والمادي لهذا الهدف.

ونراها ترفع الشعارات المختلفة، وتبذل الأموال، وتبث الأتباع والدعاية لطمس معالم الحضارة الإسلامية، واقتلاع جذور العقيدة من قلوب المسلمين الذين يعانون التخلف والفقر والمرض والجهل.

فهي تستعمل القوة الغاشمة مرة، والدهاء السياسي أخرى، والخيانات والمكر ثالثة، والإرساليات التبشيرية مرة رابعة، والأحزاب والجمعيات خامسة، وادعاءات التطور والتقدم سادسة، وهكذا تظل وراء غايتها ما دام هناك شعب تُسْتَلَبُ كنوزه، وتحارب بواسطة هذه الكنوز التي يعجز عن استخدامها هو.

ولا ينسى كاتبنا أن يظهر دور الصهيونية من وراء ذلك كله، وفي كل أرض في حربها المستمرة الحاقدة ضد الإسلام والمسلمين.

٣ ـ إن الكاتب يحرص على إظهار ذلك التقارب في أساليب هذه القوى الحاقدة وغاياتها، ليعرف المسلم أنه وحده المستهدف من وراء هذه الحروب المتنوعة، وأن عقيدته ـ أولاً وأخيراً ـ هي التي تقض مضاجع هؤلاء جميعاً، وبذلك يرى أن طريقه واحدة، فيربط جهاده بجهاد إخوانه، ويستمد قوته من عقيدته، ويتخذ من جهاد الأنبياء والمؤمنين قدوة ومثلاً، فيتصل كفاحه بكفاحهم، ويرتبط جهاده بمرضاة الله ـ عز وجل ـ وصاحب العقيدة لا يتأتى له النصر ـ في الدنيا والآخرة ـ ما لم يثبت في مجال التجربة، ويصمد في مواطن الجهاد متحملاً من أجل عقيدته شتى التضحيات، وهو في النهاية ظافر، ما دامت غايته المثلى الشهادة أو النصر في سبيل الله.

إن الكاتب يقول ـ من خلال أحداث القصص ـ: إن قانون أصحاب العقائد واحد بيِّن في كتاب الله عز وجل ﴿**أحسب الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين**﴾ العنكبوت (٢ ـ ٣).

٤ ـ وفي القصص تبدو صورة الإنسان المسلم المؤمن بربه، الساعي لمرضاته ـ عز وجل ـ ويعطينا ألواناً من جهاد هؤلاء في كل مكان رغم الصور الداكنة التي تحيط بهم، ورغم شراسة الكيد والحرب المعلنة ضدهم.

إن هذه الصورة المشرقة تزيد من عزيمة المسلمين، وكأنها صرخة تهيب بهم أن يؤثروا مواصلة الجهاد ـ والصبر في الله، والتضحية في سبيله ليفوزوا بمرضاته عز وجل، واثقين بأنه سبحانه وتعالى لن يتخلى عن عباده المؤمنين مهما تكاثرت قوى البغي والجاهلية، وسيظل دستور الجهاد الإسلامي، ينظر إلى الأعداء من منظار السنن الإلهية ﴿**إن كيد الشيطان كان ضعيفاً**﴾ وقوى الإيمان لا تقاس بالعدد والعُدَّة، لأن الله عز وجل هو الذي يقدر النتائج ويقدر الظفر، ووعده الصادق محقق لأوليائه بالنصر ما داموا مع الله قولاً وعملاً.

٥ ـ ومن خلال هذه القصص لا ينسى إبراز العاطفة الإنسانية الصادقة، دون تزييف أو تحريف، أو لجوء إلى اصطناع المواقف المثيرة، أو تضخيم اللحظات الشاذة ـ كما يفعل أكثر القصاصين المعاصرين ـ لتظهر وكأنها طابع الحياة كلها، ولتؤدي غرضهم من ورائها بإشاعة هذه الصلات الشاذة بين أبناء المجتمع[1].

ونرى في القصص كيف يلجأ الحاقدون ـ من يهود ونصارى وأذناب ـ لاستخدام الجنس والإغراء في حربهم، لإغراق الحياة بالمفاسد، وتخريب الضمائر بالجنس والملذات، وتهديم الأسرة عن طريق هذه العلاقات المحرمة وإفساد الحياة جميعاً، والوصول إلى مراكز القوى عن طريق اللذة الحرام.

---

(١) هناك بعض اللمحات والصور للمرأة، والعلاقات العاطفية بين الرجل والمرأة ما تزال تحتاج إلى وقفات، لا سيما وأن الكاتب يتأثر بواقع المجتمع العربي في هذه النقطة بالذات.

إنهم يستخدمون ـ لغرضهم ـ هذا ـ المرأة الساقطة كمصيدة ومُنْحدر، ينفذون بواسطتها شتى المآرب، يساعدهم في ذلك قوى مادية ضخمة. أما المسلم فإنه يلتزم جانب الفطرة السليمة، والأخلاق السوية فهو لا ينكر العاطفة، ولا ينسى مشاعر الرجل نحو المرأة، أو مشاعر المرأة نحو الرجل، ولكنها تظل دوماً في حدودها النظيفة، وضمن القوانين التي حددها الله سبحانه وتعالى لعلاقات الجنسين وهي علاقة الشق بشقه الآخر، الذي يسعى به للاكتمال والنمو والعبادة، ويرينا في القصة كيف تعود المرأة بعد مرحلة من الشذوذ، ومعاناة الصراع المرير، واكتشاف أباطيل الجاهليين في خداعها وتسخيرها. ثم لا تستقر إلا بعد عودتها إلى الفطرة السوية، وشرعة الله الواضحة، وتتهاوى كل الدعاوى الفارغة التي روَّجتها اليهودية والماديون حول الجنس والأخلاق والعلاقات الاجتماعية.

٦ ـ إن الملاحظات السابقة، لا تعني أن القصص عبارة عن بحث فكري يدرس أساليب الصهيونية والاستعمار وجميع أعداء الإسلام، بل ظل الكاتب فيها فناناً أصيلاً، وقصاصاً ناجحاً، فكانت الموضوعات مأخوذة من أحداث واقعية معاصرة، ولكنه لم يلجأ لسردها كما يسرد التاريخ، ولم يحشر فيها من الوعظ ما يفسد فنيتها، وإنما وضعها في إطار من القصص، وربطها بخيط من العاطفة المحببة، وحرص على وجود الترابط والتسلسل بين أحداثها، وشدها بعنصر التشويق إلى آخر صفحة فيها. لقد نجح الكاتب في إثارة وجدان القارىء، وفتح عيونه وبصيرته على حقائق مهمة في الحياة.

إن هذه القصص، بأسلوبها الواضح السهل، وتسلسلها المحكم، وواقعيتها المؤثرة، وروحها العذبة خطوة رائعة في طريق الأدب الإسلامي.

فإذا كانت قصصاً قصيرة، فإنها استطاعت طرح قضايا كبيرة، وأدت غرضها في كلا جانبيها: الشكل والمضمون.

ولعمري، فإن هذه القصص تضع الكاتب على درجات رفيعة من

المكانة الأدبية، وتجعله في طليعة الأدباء الإسلاميين الذين ترجموا الواقع من خلال أدبهم إلى صور رائعة وموضوعات ذات دلالة.

وكل قصة من هذه القصص تصلح أن تكون رواية ضخمة ـ لو أراد كاتبها ـ توازي وتقف إلى جانب الشوامخ من القصص العالمية.

وأخيراً، فإن هذه الملاحظات ليست سوى خواطر لا تغني عن قراءة القصص، لأنها لم تدخل إلى موضوعاتها.

ولعل القارىء الكريم يحرص بعدها على كشف كثير من أشيائها الثمينة ويلتفت إلى أمور لم أشر إليها مما يمتع ويفيد.

وحري بالمهتمين بالأدب الإسلامي المعاصر تقويم التجربة الفنية للدكتور نجيب الكيلاني من خلال دواوينه وقصصه وإنتاجه الغزير. وإذا كانت هناك ملاحظات على هذه القصص، من حيث تصوير الشخصيات وإبراز بعض الجوانب فيها، أو نقلها كما هي في الواقع، فإن التجربة للقصة الإسلامية سوف تتجاوز كثيراً من هذه الفجوات، ومع ذلك تبقى هذه التجربة ذات أثر واضح في مسيرة القصة الإسلامية المعاصرة.

* * *

إبراهيم عاصي والقصة الإسلامية

«إن الأدب الإسلامي قد ولد فعلاً، وكانت ولادته عسيرة جداً.

وقد بدأت هذه الولادة مع مرحلة الهجوم التي بدأ فيها الإسلام يتحرر من أغلال وعقد كثيرة كانت تكبله، ولا تسمح له بالغزو والاقتحام، أو التصرف بحرية الواثق الذي يعرف على أية أرض صلبة يدوس، وأية نقاط ضعف هشة ـ وما أكثرها ـ في العدو يهاجم».

نعم إن الأدب الإسلامي المعاصر قد ولد فعلاً ـ كما يقول الأستاذ إبراهيم عاصي ـ ولكنه ما يزال بحاجة إلى تعريف، وما يزال يفتقد إلى الوسائل التي يمتطيها ليصل إلى أسماع الناس، ويغزو النفوس القلقة حتى تجد فيه شراباً عذباً هنياً، والأفكار الحائرة لتجد فيه صوراً واقعية صادقة، لينشد للإنسان آيات الكرامة والأنس والحياة معاً.

هناك أدباء إسلاميون، وهناك ناشئون كالزهور التي تتفتح كل يوم، وفي كل موضع. ولكن الأشواك والدخان، والحسد، والعداء، يحول بينها وبين أيدي الناس وعقولهم وأنظارهم.

وسائل النشر من صحافة وإذاعة وغيرها، ما زالت ـ كلها تقريباً ـ بأيدي الذي يحاربون الإسلام، أو يخافونه، أو يديرون له ظهورهم. وأبسط صور العداء له، أن يدَّعوا مسايرته لتقاليع العصر وتقلباته وطواعيته لطواغيت هذا الزمان، وصياغة قوالب عصرية مشوهة منه باسم التطور.

وهذه عثرة من عثرات الطريق، ومع ذلك لا بد من المسير، لأن ولادة هذا الأدب تعني ابتسامة الحياة، وزعزعة الصرح الموهوم للأدب الفاجر.

ولكن كيف يكون المسير؟

كيف نخرق الطوق المضروب حول أدبنا الإسلامي؟

لا بد من تخطيط، وإخلاص، وعمل لكي نوفر الوسيلة الأمينة النظيفة لحمل الأدب الإسلامي: كتاباً، ومقالة، وقصة، وشعراً، ومسرحاً، ونقداً وصحافة وإذاعة...

وهذا جهد ينبغي أن لا ننساه، ولا نبخل بالتضحيات في سبيل نجاحه، لأن أصحاب المذاهب المادية والجنسية ركبوا على أجنحة الأدب ـ خاصة ـ والفنون ـ عامة ـ ليصلوا إلى عقول الناس ونفوسهم، وهكذا انتشرت مذاهبهم. ونحن ـ كمسلمين ـ علينا أن نعرّف أدبنا ونعرّف أدباءنا، بالحوار واللقاء، والدراسة والعرض، والتحليل والنقد، حتى نفتح بينهم وبين القارىء دروباً وأبواباً، ونلقي على مناحي هذا الأدب كلها أضواء، وسيجد فيه الجيل ـ إن شاء الله ـ شراباً طاهراً عذباً، يمج بعده أشربة العابثين والمتاجرين بالجنس والمال والسلطان.

* * *

لقد أطلت المقدمة، وحرمت قارئي العزيز من التعرف على أديب مرموق، دخل ساحة الصراع مع الباطل في مجالات كثيرة، وكان قلمه الموهوب مؤثراً بوضوح في الأمور التي خاض فيها: كتابة وخطابة وعملاً.

الأستاذ إبراهيم عاصي أديب إسلامي، ولد في جسر الشغور عام ١٩٣٥ م في سورية، في منطقة جميلة رائعة، في أحضان الظلال وعبير الأشجار الخضراء، وترك ذلك أثراً واضحاً فيه، يقول عن نفسه: «وأنا ابن بلدة حباها الله جمالاً طبيعياً بديعاً... من نهر جارٍ، إلى جبل مطلٍّ، إلى وادٍ

قحطٍ، إلى تلال مشرفة، إلى بساتين فينانة مترامية، إلى خير وفير وفاكهة كثيرة».

وبلدته كما وصفها جمالاً، تقع على طريق بين حلب واللاذقية في شمال سورية، تمر فيها نهر العاصي الشهير، وتحفه بساتين وأشجار وتتناثر على جنباته القرى والأرياف الخضراء.

لم يكن أديبنا غنياً، بل عاش في بيت فقير، أمده بشعور الإنسانية الرحيمة، وشعور العطف والشفقة على كل الناس، بل على الحيوان أيضاً، وأكسبه رقة ورهافة في الشعور، وكان ينظر إلى الأغنياء نظرة الإشفاق لأن كثيراً منهم قد أكسبهم الغنى قسوةً في القلب وبعداً عن الرحمة، وحباً في العبث والتواكل والاستهانة بالآخرين[1]. وورث عن أبويه الصلاح، والميل إلى الهدوء، وسلامة القلب، والإيمان الفطري الذي غذّاه بالوعي والثقافة والمجاهدة.

تلقى تعليمه الابتدائي في بلدته جسر الشغور، بينما أكمل دراسته المتوسطة في حلب بعد تفوقه في الشهادة الابتدائية وحصوله على منحة مجانية للدراسة، وبعد ذلك التحق بدار المعلمين وتخرج منها سنة ١٩٥٤ م. وبدأ العمل في حقل التعليم.

ولكن طموحه المتوقد، ومواهبه المبكرة، وإحساسه بالمسؤولية الملقاة على أبناء جيله من المسلمين، دفعه ـ ذلك كله ـ إلى الاستمرار في الدراسة أثناء العمل، فحصل على الشهادة الثانوية، وتابع دراسته الجامعية حتى حصل على درجة الليسانس من كلية الأداب قسم اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٦١ م.

---

(١) هكذا ينظر المسلم إلى الأغنياء والمترفين اللاهين، ولا ينظر إليهم بحقد يود سلبهم ما يملكون، وكأنهم أعداء له منذ أمد.

يمتاز أديبنا بثقافة واسعة متنوعة، تركت آثارها على إنتاجه ونظراته فقد تأثر بالقرآن الكريم الذي كان: «أول كتاب فتحت عينيّ على أحرفه النورانية وأنا ابن ست سنين»[1].

وكذلك تأثر بالدراسات الإسلامية للشهيد سيد قطب ـ رحمه الله ـ والدكتور السباعي ـ رحمه الله ـ والأستاذ محمد قطب ـ حفظه الله ـ والشيخ الغزالي والأستاذ الطنطاوي ـ حفظهما الله ـ والأستاذ المودودي ـ رحمه الله ـ مع تأثره بكتابات الشهيد البنا عليه رحمة الله، وغيرهم من الكتّاب المسلمين.

ولكن تأثره بهم كان متبايناً، ساعده ذلك على تعميق مفهومه الإسلامي واستقامة وجهته الفكرية والعملية، وتفاعله مع الحياة ضمن هذا التصور السليم، وكان ذلك واضحاً في تعامله مع الجيل الذي شارك في تعليمه وتربيته «مما رسخ وبشكل جيد ـ والحمد لله ـ الكثير من المفهومات الإسلامية بشكل صحيح وواضح لدي»[2].

وساعدته هذه الثقافة على إجادة الخطابة، وكان تلميذاً براً بالسباعي ـ رحمه الله ـ الذي عرفته سورية خطيباً إسلامياً لا يدانى، حيث كانت خطبه تجمع بين السلاسة والقوة، ووضوح الفكرة وعمقها، وبلاغة القول وسهولته، ويصفه أديبنا فيقول: «تأثرت بشخصية السباعي ـ رحمه الله ـ وقد كان خطيباً مصقعاً ـ كما هو معلوم ـ وإني إلى الآن لم أسمع ـ على كثرة ما سمعت ـ أخطبَ منه في تدفقه وبيانه وروحانيته، واستيلائه على مشاعر السامعين بالجد حيناً، وبالمرح حيناً آخر، وقد كان طويل النفس، معينه العلمي ثر غزير، وبديهته حاضرة لا تغيب».

---

(١) هذه الاستشهادات من أقوال الأستاذ إبراهيم عاصي، اقتطفت من رسالة مطولة أجاب فيها على كثير من الأسئلة التي وجهتها إليه.

(٢) المصدر السابق.

وهي شهادة حق يعترف بها العلماء والخطباء ممن عرفوا السباعي وسمعوه وعايشوه. وشهد بذلك الأعداء قبل الأصدقاء، ولكن أبناء الدعوة قصروا في حق أسلافهم من الدعاة في هذا العصر، فلم يعرف الناس عن البنا وعودة وقطب والسباعي وغيرهم كثير كما يعرفون عن أقزام ومنحرفين وفنانين.

وقرأ أديبنا لعدد كبير من الأدباء والمفكرين على اختلاف مشاربهم أمثال: المنفلوطي، وجبران، وشوقي، وحافظ إبراهيم، وطه حسين، ونجيب محفوظ، ومحمود تيمور، وتوفيق الحكيم، وصادق الرافعي، وأحمد حسن الزيات، ومحمد عبد الحليم عبد الله، والعجيلي، والمجذوب، وأبو حديد، ويوسف إدريس، والمازني، والبشري وغيرهم.

إضافة لقراءة عدد من روائع الأدب العالمي وكتَّاب القصة والمسرحية المشهورين.

ولم تقعد به همته الطموحة عن قراءة كثير من كتب التربية وعلم النفس والمنطق وعلم الاجتماع والفيزياء، والكيمياء، والفلك والفنون. لقد كان لهذه العوامل أثر كبير، مكنته من الاطلاع على الثقافة المتنوعة، وأمدته بزاد من المعرفة بالناس والمجتمعات والمذاهب والأفكار والآداب والفنون، وكانت له ثروة علمية أعانته على الإبداع والعطاء.

* * *

تعرفنا على نشأة إبراهيم عاصي، والمؤثرات التي أسهمت في تكوينه الأدبي ولا بد لنا من التعرف عليه كأديب إسلامي ساهم بقلمه في إنشاء أدب إسلامي، وجاهد بالكلمة أيضاً لرفع راية الحق، وإقامة المجتمع الإسلامي المنشود.

لقد بدأ إبراهيم عاصي أول إنتاجه بكتابة خاطرة تحت عنوان «إلى أين؟» عام ١٩٥٨ م، ولم تنشر هذه الخاطرة، ثم واصل الكتابة لذاته حتى

نشر أول مقال له في جريدة اللواء الدمشقية عام ١٩٦٣ بعنوان «احذروا هذا الزواج»[١].

ولكنه كان يمارس الخطابة آنذاك، ويصرف جهداً في ذلك، فتأخذ قسطاً من التعبير عن مواهبه، وكان ناجحاً في الخطابة، مع أنه مارسها كخطيب للجمعة في أحد مساجد بلدته، لكنه خرج بها عن منحى الخطب المكررة التي ألفها الناس من خطباء المساجد، بل كان يعتمد في خطبه على «النقد الاجتماعي القائم على تصيّد العيوب والمفارقات... مع التركيز على الأوليات المهمة في عقيدة المسلم وفكره وحياته... كل ذلك في إطار من الواقعية اليومية والأسبوعية»[٢].

وشارك كخطيب في النشاطات الثقافية عن طريق إلقاء المحاضرات المختلفة.

وأحب كاتبنا فن المقالة، وله فيه جولات موفقة، ويبدو أنه تأثر بالطنطاوي والمازني في هذا الشأن، مع اختلاف في الأسلوب، وله في ذلك مقالات كثيرة نشرت بالمجلات والجرائد، وجمع عدداً منها في كتاب أسماه «همسة في أذن حواء» طبع ثلاث مرات، مع عدد آخر من المقالات، جمعها في كتاب بعنوان «للأزواج فقط» وهو ينتظر الفرصة المناسبة لطبعه.

ولعله في هذا الفن يبدو لنا واضحاً بأصالته، وسهولة أسلوبه وقدرته على إبراز المفارقات، وتصوير الوقائع بطريقة ساخرة محببة، مع نعومة ظاهرة في تناول الأشياء التي ينقدها مهما كان هذا النقد مراً.

إن مقالاته مزيج من المقالة الاجتماعية والمقالة الذاتية، فهو متفاعل مع ما يكتب وهذا ما يحس به القارىء، ولكن تفاعله لا يبعده عن جادة الصواب، ولا يخرجه عن مساره المرسوم في المقالة.

---

(١) انظر كتابه «همسة في أذن حواء» ط ٣ ص ٦١.

(٢) من رسالة يتكلم فيها عن حياته.

وربما كانت إسهاماته في هذا المجال أنجح من غيرها، ولو أن ذلك لا ينقص من قدر إسهاماته الأخرى.

* * *

أما فن القصة عنده، فله فيه جولات موفقة، وإن كان ما يزال في بداية الطريق.

لقد كتب أديبنا قصصاً كثيرة، نشرها في المجلات الإسلامية ولا سيما في مجلة ـ حضارة الإسلام ـ بدمشق ـ وجمع عدداً منها ونشره في مجموعات هي:

١ ـ مجموعة «وَلْهَان والمتفرسون».

٢ ـ مجموعة «سلّة الرمان».

٣ ـ مجموعة «حادثة في شارع الحرية».

وهذه المجموعات تحوي عدداً كبيراً من القصص التي كتبها أو نشرها وما زال يكتب قصصاً جديدة، ويهيىء نفسه لدور أكبر، ولكم نتمنى أن يزيد من إنتاجه، ويدفع للمكتبة الإسلامية عدداً أكبر بكثير من هذه القصص، ليسدّ فراغاً كبيراً نعاني منه، ولا سيما في مجال القصة عامة، والقصيرة بوجه خاص.

وليت الذين يمارسون هذا الفن من الأدباء الإسلاميين يجمعون إنتاجهم في مجموعات مطبوعة ليتعرف عليها القراء. وليتمكن الدارسون من التعريف بها ودراستها، لأنه ليس خافياً على أحد صعوبة الوصول إلى المجلات الإسلامية، ومتابعة ما ينشر فيها في كل البلدان، ولكنه قد يسهل انتقال هذه المجموعات القصصية من بلد إلى آخر، ويتعرف عليها القراء في أنحاء العالم الإسلامي.

وليتهم يجتمعون متعاونين لنشر إنتاجهم في مجموعات تحمل ما تماثل من إنتاجهم، وتعبر عنا لطابع الإسلامي في الأدب.

نعود بعد هذا الاستطراد إلى أديبنا إبراهيم في آماله القديمة حيث يعدّ نفسه، ويَعِدُ قُرّاءه بكتابة الرواية الطويلة، ولا ندري أين يستقر به الأمر بعد حين.

هل سيظل يكتب القصة القصيرة، ويعطيها بعداً أكبر؟

أم سيتحول إلى كاتب للقصة الطويلة؟

أم سيؤول به الأمر إلى النقد الاجتماعي والأدبي وهي ميزته الخاصة؟

أم أن هذه المزايا ستتفاعل لتكون نسيجاً في بنائه الأدبي المنتظر ككاتب قصة إسلامي يشق الطريق أمام من يأتي بعده من رواد هذا الطريق؟[1].

ولكاتبنا غير هذه المجموعات القصصية كتيب صغير بعنوان «جلسة مفتوحة» وهو عبارة عن حوار فكري مع الأستاذ مالك بن نبي ـ رحمه الله ـ وإذا كان من الأفضل التعرف على هذه المجموعات كلها، فإنه من الصعب أيضاً أن تتسع هذه الصفحات لها، إلا إذا كنا نريد إعطاء صورة ملخصة وأحكام مبتورة عن هذا الأديب مع أننا لم نقصد في هذه الموضوعات هذا المقصد، بل كانت الغاية التعريف به كأديب إسلامي قبل أي هدف آخر، وإذا سمحت لنفسي في هذا العرض أن ألقي شيئاً من الضوء على بعض مميزاته فليس ذلك إلا من قبيل فتح الأبواب للإخواة القراء، لأنني أحس بأن أدبنا الإسلامي ما زال مجهولاً، ومن واجبنا التعريف به.

لهذا فإنني سأختار المجموعة الأخيرة من قصصه، وهي ـ حادثة في شارع الحرية ـ في طبعتها الأولى، لأعرضها من خلال قصصها بشيء من التفصيل، وبهذا العرض أكون قد أعطيت نموذجاً واضحاً عن أديبنا وفنه القصصي.

---

(١) نسأل الله عز وجل أن يفرج عنا وعنه، فلقد أودع السجن مع كثير كثير من حملة الدعوة منذ سنوات دون أن يدري أحد عن مصيره ومصير إخوانه شيء.

مع مجموعة «حادثة في شارع الحرية» لإبراهيم عاصي

«حادثة في شارع الحرية» مجموعة قصصية نشرها كاتبنا عام ١٩٧٥ م وهي تضم مقدمة للدكتور عماد الدين خليل، وسبع قصص قصيرة هي على التوالي: ١ ـ مركباتنا تدخل عصر الفضاء، ٢ ـ زيجة فندقية، ٣ ـ في الطريق إلى العاصمة، ٤ ـ حادثة في شارع الحرية، ٥ ـ ضد الاعتزال، ٦ ـ قصة رسالة، ٧ ـ رحلة مع الجمال.

وربما كانت مقدمة الدكتور عماد الدين خليل كافية في عرض هذه المجموعة، لولا أنني أحب نقل صورة واضحة للقارىء الكريم، مستفيداً بما كتبه الدكتور عماد، صاحب الدراسات القيمة، في التاريخ والأدب.

لقد حاول الدكتور عماد خليل أن يدلنا بطريقة مركزة على الملامح الأصيلة في هذه القصص، وعلى المميزات الخاصة بها سلباً وإيجاباً، واتخذ لتقويمه هذا منهجاً متميزاً، ولخصه بما يلي:

«إن المسلم المعاصر بحاجة إلى هذا كله: القيم، الأمل، الرفض، التجاوز، والحركة...

وكم هو رائع ومدهش أن يمد الفنان يديه... أن يسهم بشكل أو بآخر

في المساعدة على هذا العطاء، في منحنا النار التي تحرق، والوهج الذي يضيء».

وإذا انتقلنا إلى القصة الأولى: مركباتنا تدخل عصر الفضاء، نجد كاتبنا يلتقط فيها صورة عن حياتنا في الريف، وليس ريفاً معيناً، بل كل ريف في العالم الإسلامي. ولعله يرمز بذلك إلى الوطن الإسلامي كله في سيره وتطوره كهذه المركبة التي تحمل ركاباً مختلفين، بشراً وحيوانات ومواد، مع ما يعاني من أمراض قاتلة لبعده عن الإسلام، دون أن يشير إلى ذلك أو يلجأ إلى التصريح، بل يترك الصورة تتحدث عن واقع نلمسه، لكنه يكثّف الضوء في زوايا تحتاج إلى إضاءة ليراها القارىء... ويتعرف إلى الواقع المتخلف.

فهذه المركبة العجوز التي تحمل ركابها لتنقلهم من بلدهم إلى المدينة، تمثل واقعاً متخلفاً مريضاً عاجزاً، لأننا لم نتعرف إلى الطريق القويم بعد، ولكنها ترمز إلى مجريات حياتنا التي تتمسك بهذا العجز في كل أطرها ومناحيها.

ويضيء اللوحة، فنرى المركبة العجوز «جميع الكتل اللحمية المحشوة بها المركبة» «والمركومة على ظهرها وجنباتها».

ولعله في هذا التعبير يوحي لنا بما وصل إليه الإنسان من امتهان كرامته ومساواته بالأشياء الجامدة، بل انحطاط قيمته إلى أدنى منها في ظل المدنية المعاصرة. لهذا فلم يعد ركاب العربة رجالاً، وبشراً، بل كتل لحمية محشوة بها المركبة أو مركومة فوق بعضها.

وحتى تمثل المركبة واقع حياتنا، جعل فيها السائق، والطالب، والجندي، والموظف والعامل، والحيوانات والأشياء.

هذه المركبة العجوز في حركتها، التي تحمل غبار القدم والضعف

تتوقف أيضاً بأمر السلطة «الشرطة وعريف المخفر»، ويدور التحقيق الغريب بين ضجر هؤلاء الأحياء، وممثل السلطة ـ العريف ـ .

فالسلطة أصبحت عائقاً، تستغل الواقع المزري لكي تنتفخ وتنتفع، وينتهي التحقيق بالغُرْمِ الواقع على الناس كما وقع على السائق المسكين ودفع ثمن ديك من الدجاج كما يدفع غيره من السائقين.

وكما قلت، فالقصة مع تعبيرها عن الواقع الذي نراه حقاً في الأرياف بهذه الصورة التي تتقزز لها النفس، عندما يسيل «بول الأغنام والعجول» على الركاب من طول الانتظار. ورغم سخط الركاب وضجيجهم، إلا أنهم كانوا في وضع يعجزون فيه عن عمل أي شيء إلا الصراخ الفارغ، وهي صورة الناس ـ كل الناس ـ الذين طحنتهم أنظمة الظلم هنا وهناك. واستهانت بهم إلى هذا الحد، ولم تأبه لصراخهم، لأنها تعرف أنه لا شيء غير الصراخ، وسلخت منهم القدرة على الاحتجاج والمقاومة والدفاع أو الثأر، فلم يعد بمقدورهم إلا الرضوخ والصراخ المكتوم.

إنه في قصته هذه يستخدم الفكاهة: والسخرية الحلوة المرة، الموحية: «فالجميع مكتوفون مرصوصون... الألسنة وحدها هي التي تستطيع التحرك، والرقاب تتحرك ولكن بصعوبة شديدة». ص ١٠.

ويقول السائق في رده على سؤال الشرطي عن سرعته: «لم أكن مسرعاً، ولكن خلْفي يركب فحلُ مِعزي، وقد أصابني طرش من كثرة صياحه».

ونلاحظ أن فكاهته وسخريته تأتي عن طريق التصوير الموحي الذي يعتمد على النقاط البارزة والمفارقات، أو الصور الساخرة، وهي ميزة لإبراهيم عاصي في قصصه ومقالاته النقدية.

ثم نرى صورة استغلال الوظيفة، والسلطة، وكان بطلها عريف الشرطة

يعاونه من كان في المخفر، ولهذا دلالات سياسية واجتماعية، لأن كثيراً من البلدان تحكمها جيوشها كهذا الشرطي الذي يتحكم في المركبات وسير الحياة ومعاش الناس، ولهذا نرى واحداً من الركاب يقول: «أما تعرف سِخَرَهم الدائمة للسائقين: خبز تازا... لحم طري.... خضراوات... إبريق للماء».

ثم يعطينا صورة عن عدم اكتراث السلطة والمسؤول عن الناس مهما كانت حالهم: «كفى... كفى (علاك)[1]... وفلسفة وبيع إنسانية... أنا لا أسألك عن المخالفة، ولا عن الركاب، هذا شيء لا يعنينا كثيراً، إننا نريد أن تضبط أقوالك في موضوع أهم». ص ١٣.

والقصة تعطينا صورة محزنة لهذا الموضوع المهم، إنه الاستغلال وأخذ الرشوة، وامتلاء السلطة وامتهان كرامة الناس.

ثم يرمز لنا بصورة أخرى عن صراخ العذاب والإهانة التي ترزح تحته شعوب الوطن الإسلامي فيقول على لسان واحد من شخصيات القصة:

«أين كرامة الوطن؟ أين كرامة الإنسان؟ هل نحن دجاج؟ هل نحن بهائم حتى نحشر هذا الحشر؟ أين من يعنيهم الأمر؟ ألا يرون؟ ألا يسمعون؟». ص ١٤.

وواقع القصة يعطينا أجوبة هذه التساؤلات، والله ـ عز وجل ـ يقول لنا: **﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾**.

وما هو التبرير الذي يلقاه الناس؟ ما هو الجواب الذي نسمعه دائماً من المستغلين: «أنسيت أننا في حالة حرب؟ وأن أموالنا يجب أن نوفرها لما هو أهم من شراء السيارات؟». ص ١٥.

---

(١) علاك: لفظة تدل على الكلام الفارغ، أي كفاك من الكلام الفارغ.

وهو تبرير الماديين دوماً والمستغلين الذي ينظرون للحياة بمقياس الملايين والجنس والأرقام... وتبرير الحكام الذي استغلوا شعوبهم، وفرضوا عليهم الضرائب باسم الحرب والتحرير. وراحوا ينفقون على ملذاتهم، ومصالحهم فإذا طالبهم الناس بالخدمات والضرورات، صاحوا: إننا في حالة حرب ـ ولا يوجد اعتمادات!!

وقد يسوقون تبريرات أخرى: «أزمة مواصلات... مشكلة العملة الصعبة فحسب...».

هذا هو الواقع الذي يُستهان فيه بالإنسان، ويُعامل بازدراء واحتقار حتى يصبح ركاماً بين الحيوانات والأشياء، هذا الواقع لن يلد إلا العجز والفوضى والمهانة والخوف، لذلك نرى المثقف يقف هذا الموقف:

«همَّ الشاب المثقف أن يسأل بملء فمه: وأين ذهبت عملتنا الصعبة، ولكن أدرك خطورة السؤال حالاً، فخنقه بحنجرته، بقي بعدها فترة يحيل عينيه فيما حوله خشية أن يكون أحد ما قرأ أفكاره وسجلها عليه». ص ١٦ ـ ١٧.

وهي صورة الإنسان المستذل المسحوق في كثير من بقاع الوطن الإسلامي مع أن لسان الحال يقول: «إنهم لا يشعرون بشعورنا، إنهم لا يعنيهم أمرنا، كل واحد منهم عنده تكسي... تكسي مثل العروس تسابق الريح وبعضها بلا لوحات، بلا جمارك، أولئك لا يطولهم قرار منع استيراد، ولا أزمة عملة صعبة ولا ما يحزنون!! آه بس لو ينعصر أحدهم هكذا بيننا ولو مرة واحدة».

وما أعظم المفارقات في دنيا انتزع الله فيها من النفوس شعور العطف، شعور الإنسان نحو أخيه الإنسان، حتى انقلب الرجل وحشاً يمزق لحم أخيه لأنه قال له أخطأت.

فهل يمكن للإنسان، أي إنسان أن يكون إنساناً حقاً بلا شرع الله؟

إضافة لما قلناه عن قصة ـ مركباتنا تدخل عصر الفضاء ـ للقصَّاص المسلم إبراهيم عاصي، فإن القصة توحي لنا بما تموج به مجتمعاتنا من فوضى وتأخر، وابتزاز لأموال الناس، وإلصاق التهم بالأبرياء، وإجبارهم على الاعتراف الكاذب، وقبول الباطل، ولهذا أصبحنا نرى مؤامرات وانقلابات خيالية تلصق بالخصوم لتدميرهم، خدمة لذوي السلطان. إنه عالمنا، عالم المال والجنس والخمر، والقلق وانعدام المنطق، والناس في هذا العالم مُسْتَذَلُّون، لهذا فإن عريف الشرطة لا يتوانى عن توجيه أقسى الإهانات لهم قائلا: «تفو... قرباط... نَوَر... ما في شعور بالمسؤولية؟».

بهذا الأسلوب الواضح، السهل، البسيط الذي يقترب في كثير من عباراته من أفواه الناس العاديين ليأخذ عبارة أو كلمة فيصوغها بأسلوبه الساخر ولمحاته الذكية، بهذا الأسلوب صاغ قصته هذه، بل أكثر قصصه.

لقد جمع في قصته هذه أنواعاً من الناس: رجل السلطة، والمواطن العادي، والعامل والمثقف، البهيمة والإنسان، ورأينا فيها صورة الإنسان المهان، وبذلك أعطانا شريحة واقعية من الحياة.

وفي هذه القصة ملامح أسلوبه وفنه القصصي كما يقول الدكتور عماد الدين خليل في المقدمة: «يتحدث وفق أسلوب رمزي ـ إلى حد ما ـ عن حياتنا الراهنة ـ البطيئة، الرتيبة، الثقيلة... ويسخر ويدفع قارئه إلى السخرية من الدوافع الروتينية السخيفة التي تختم على حياتنا هذه بالثقل والرتابة في عصر يسرع فيه الناس في البلدان الأخرى إلى اجتياز الفضاء ونحن ما نزال نشم من خلال بول الشياه الذي يتسرب من أعلى المركبة الضيقة على رؤوس الجالسين رائحة العفن الذي يزكم الأنوف، وفساد الهواء الذي يسد الأنفاس، وكأنه عفن حياتنا كلها وفساد هوائها المسموم».

وفي أسلوبه: البساطة، والسخرية المحببة، واللمحات الشاعرية والعفوية، بل فيه اصطياد اللقطات الذكية اللمّاحة.

إن هذه القصة واقعية بسيطة، ولكنها في الوقت ذاته رمزية موحية تصور حقائق حياتنا في جوانب كثيرة، وكان كاتبنا موفقاً في اختيار هذه الشريحة، وهؤلاء الشخصيات، وأظهر ما تتركه الألفة والاستكانة عند الناس من استمرار المهانة والذل. فهذا السائق المستغل المظلوم يقول عندما عرف غرض عريف الشرطة منه: «انقلب مزاج السائق رأساً على عقب، فقد طار صوابه من الفرح، وهزته المفاجأة السارة، فمدّ يده إلى جيبه وهو يردد بنشوة طفولية: عشرون ليرة فقط؟ حاضر.. حاضر». هكذا يقابل قائد العربة الابتزاز وطلب الرشوة بفرح وبهجة.

وظلت حياتنا، كما ظلت حياة أوطاننا في كثير من مناحيها تمشي كما تمشي هذه المركبة، «وفي غضون لحظات كانت المركبة العتيدة تقلع نحو المدينة من جديد متخلِّعة كمومس عجوز، وكانت تئط أطيطا مرعباً، جارَّة خلفها زهاء ربع قرن من عمرها المديد، وكان يقرأ القارئون على مؤخرتها بخط رديء مشرشر «يا ناظرني نظرة حسد أشكيك لواحد أحد».

* * *

أما قصة ـ زيجة فندقية ـ وهي القصة الثانية، ففيها صورة عن مَدِينتنا المعاصرة، وعن الحياة التي نركض وراءها مقلدين الغرب تقليد القردة البلهاء، إنها تبين لنا القيم التي بقيت ـ إذا صحت لنا تسمية ما بقي بالقيم ـ تتحكم بهذه المجتمعات المعاصرة.

ولعله عندما اختار بيروت مسرحاً لقصته، أحسن في ذلك لأنها ستترك أثراً باقياً في القارىء، لا سيما وأنها أصبحت دماراً وحرائق وعذاباً بعدما لاكها كل الناس، وبصقوها عاراً في وجه العرب والمسلمين على هذا الشاطىء العفن.

نعم كل شيء يمكن أن يحدث بلا قانون أو منطق أو قيم، والفندق الذي اختاره لهذه القصة يصلح أن يكون رمزاً لكل بلد من بلداننا التي تستورد

أصباغها ومظاهرها وقيمها من الغرب، حتى تفقد هويتها الخاصة بها، ولذا فإن وصف الدكتور عماد الدين خليل لهذه القصة يغنينا عن الإسهاب في هذا إذ يقول: «في زيجة فندقية التي يلمح فيها القارىء متانة الحبكة، وشاعرية اللغة، مما لا يلمحه بهذه القوة في عدد آخر من القصص، نحسّ أن الفندق هو عاصمة ما من عواصمنا الكبرى، عواصمنا التي نقلت عن تقاليد الحياة الغربية... ونقلت حتى فقدت وجهها العربي وقلبها المسلم.

ليس الشرف وحده هو الذي يضيع في الفنادق الكبيرة ولكن الإنسان نفسه، الرجل والمرأة، الزوج أو الزوجة، وتختلط الأمور، ويتصل الرجال بغير زوجاتهم، والزوجات بغير أزواجهن وتحس أن هنالك خطراً كبيراً، ولكنه مجهول غير محدود، وتشعر أنه لا ضمان، ولو كنت تملك ذرة من شرف فإنك ستنكِّس رأسك خجلاً وخوفاً وإحساساً بالعار، وتتمنى لو تنشق الأرض فتلتهم هذه العواصم الضائعة، هذه الفنادق المتغرِّبة، هذا التمدن الزائف الذي يأخذ فيه كل شيء مكانه إلا الإنسان وشرف الإنسان.

إن الإحساس بالعار هو الذي يسيطر على القارىء عبر مقاطع القصة كلها، ويدفعه إلى البحث عن الشرف القديم، الشرف العظيم حيث يعرف الابن من هو أبوه، وحيث يدخل الزوج على زوجته في أحلى الليالي وهو مطمئن إلى أنها تحمل عذريتها وبكارتها».

نعم، هكذا توحي لنا هذه القصة، ولهذا تنتهي بإقرار العار، ويعود العريس الحقيقي بلا عروسه، وتصبح العروس الحقيقية في أحضان رجل آخر، «وتمّ عقد قران فوزي رزق على عروسه نوال!!! أما فوزي العريس فقد رجع إلى أمه في اليوم التالي وحيداً كاسف البال، يحمل حقائبه ويجرجر خطاه، وهو لا يلوي على شيء».

وهكذا تكون المجتمعات المتغرِّبة، يضيع فيها الحق، والعمر، والشرف وتخلط الأمور، ويصبح العار مقبولاً في ليالي فرح عفنة.

* * *

أما في قصة «في الطريق إلى العاصمة» فإنه يعطينا صورة عن القوى التي تحكم هذا العصر «المال والخمرة والنساء» ومن خلال عرضها نرى كيف يخضع لهذا السلطان الخسيس كثير من الناس، يتساقطون ويضيع الحق ويصرع الشرفاء، ويمضي الشياطين ليتحكموا بالناس والمصائر: «ويل لمن لا أنياب لهم ولا مخالب، ويل لهم من جواميس المال والسلطة والإغراء في هذه الحياة».

والشخصية التي يختارها كاتبنا «شخصية شريف بك» تدعو للاشمئزاز والقرف واحتقار العمر التافه حيث يصبح القوّاد مفتاح الأبواب المغلقة.

* * *

وفي قصته «حادثة في شارع الحرية» يصور لنا واقع حياتنا القلق في عالم الخوف والرعب وتعذيب بقايا الإنسان، إنه يفتح عيوننا على عالم الإنسان المتوحش الذي لا يحس ولا يفهم إلا بغرائزه الحاقدة.

ويحس القارىء أن المعاني الإنسانية قد انعدمت في هذا المجتمع، والعواطف البشرية أصبحت رميماً حارقاً، ولم يعد هناك دافع شريف يدفع صاحب السلطة نحو المجتمع الذي يحكمه إذا تعارض ذلك مع مصلحته الذاتية ولذا يصور لنا هذه المأساة الإنسانية التي تعبر عن الوحشية الإنسانية «محمد عابد ما يزال مكتوفاً مكبل اليدين إلى خلف، إنه يعتقد أرض السيارة كتلة من اللحم، لا يقوى على شيء، الرجال الأشداء أعجبهم هذا المنظر فيما بعد، فأخذوا يعاتبونه بأقدامهم وركبهم تارة بالدحر وطوراً بالركل، تبادلاً بين الجهتين، وربما سرهم أكثر أنه لا يقوى حتى على الكلام لأنهم عصبوا فمه بعصابة».

أمام شهوة السلطة، ورائحة الخمرة، وعواء الجنس يصبح الإنسان كتلة يعبث بها الجلادون، تضيع القيم، وتفقد الكلمات معانيها ومدلولاتها ويموت الإنسان الذي كرمه الله «هيه... هيه... أغبياء، عملاء... خونة أعداء الحرية والتقدم».

وعالم الرعب والخوف لا يلد إلا أناساً تافهين، رجالاً لا تشدهم إلى الحياة إلا شهوة وحقد. لهذا يضيع الحق والوطن والكرامة وتتعاقب الكوارث مع هذا الواقع.

* * *

أما في القصص الأخيرة لهذه المجموعة فإن إبراهيم عاصي يترك طريقته المعتادة في تصوير الأحداث واختيار اللقطات الموحية. ليمزج أحياناً بين المقالة النقدية والأقصوصة القصيرة كما صنع في قصته «ضد الاعتزال». إنه يترك لنا صورة جميلة ساخرة موحية بالحزن ولكنها تصور بهذه الطريقة دقائق الواقع الذي آل إليه الشعب الغافل.

إنه لا يعتمد في قصته هذه على عقدة، وإنما يلجأ إلى التصوير الساخر الذي ينوب عن الحبكة والعقدة، ويعتمد على التوافق بين الواقع ومقاطع الأغنيات التي اختارها ليبرز المفارقات.

إنها طرقات ناعمة ورتيبة أحياناً ولكنها عميقة، تشد إحساس القارىء وتصل به في النهاية إلى ما يريد. تفتح إحساسه على ما حوله من شرائح الحياة المختلفة التي تناقضت فيها الوقائع والأهداف، فلماذا لا نقبل مثل هذه التجربة؟ ولماذا لا نترك كاتبنا يعمق تجربته الجديدة، ولونه المستحدث بطريقته المحببة؟ لعله يعطينا لوناً جديداً، وأسلوباً متميزاً يعبر عن شخصه هو وعن لون أدبه الإسلامي المعاصر بطعمه وأسلوبه؟

ألم تكن أساليب القصة الحديثة تجارب لكتّاب خاضوا في هذا المضمار غير هيَّابين حتى تركوا للآخرين معالم وخطوطاً أضحت فيما بعد ألواناً ومدارس؟.

* * *

وقصة رسالة يمزج فيها بين طريقتين ـ رغم واقعيتها ـ : طريقة الرسائل وطريقة «البوح عما في داخل النفس» «المونولوج الداخلي». وصوَّر لنا جانباً

هاماً من حياتنا، ومن الواقع الذي يواجهه أبناؤنا في المدارس على أيدي شياطين مستغربين، وحاقدين ينكرون الحق، ويكرهون شرع الله، آلوا على أنفسهم زرع الحقد ضد الشرفاء الطيبين، وإثارة الشحناء وحقن الصغار والشباب بالغرور والتفاهة والجهل، بدلاً من المحبة والتعاون والأدب والعلم.

إنها المأساة التي جعلت دور التربية: من مدارس وجامعات تخرج لنا جيلاً يتنكر لقيمه وعقيدته، ويقطع الصلة بينه وبين واقعه. ثم لا يتركنا حيارى، لأن الموطن هذا موطن جهاد حقيقي بين الحق والباطل، لهذا نراه يرصد لنا منازع الفطرة التي تنتفض أحياناً عندما يلامسها بلسم إخلاص، وكلمة حق شجاعة، لتعود إلى الحق مهما طال بها الشرود.

* * *

وقصته «رحلة مع الجمال» ذكرتني بواحدة من قصص نجيب محفوظ «وأظنها ميرامار» مع فارق في الرؤية، حيث يكثف فيها الرؤية حول نقطة واحدة من خلال انعكاساتها في نفوس مختلفة ومتعددة.

فاختار الشاب العصري المفتون بالجنس الغارق في الأحلام، والعجوز المتصابي الفارغ من القيم، وينبىء عن متناقضات مضحكة للمتظاهر بالتمدن، والشاب المسلم الذي يقبض على دينه في وسط يلتهب بالمغريات، وكأنه يقبض على جمر من نار ولكنه يصر على استقامته ويترك للحياة نماذج الخير والفطرة السليمة والتصور الصحيح.

* * *

وبعد هذا العرض لقصص هذه المجموعة لا بد لنا من وقفات، نستخلص فيها بعض الملاحظات التي تعين القارىء المسلم على تبين الملامح التي بدأ يتسم بها أدبنا الإسلامي المعاصر.

١ ـ إن القارىء سوف يدرك سريعاً أن لهذا الكاتب أسلوباً متميزاً لم

يحرص فيه على تقليد أحد، إنها بصماته هو في قصصه، وروحه ومزاجه وذوقه، وهذه ميزة رائعة يبدأ بها كاتبنا، وهذا ما قرره أيضاً الناقد منير عكش حيث كتب في مجلة الصياد اللبنانية عن مجموعة «ولهان والمتفرسون» للكاتب سنة ١٩٧١ م فقال: «لكن إبراهيم عاصي يحاول هنا لأول مرة أن يعقد صلة حميمة مع العالم المضطرب الذي يحيط به باستلهامه أكثر المشكلات حساسية وطرحها من خلال صيغة جديدة للقصة القصيرة، وهذه الجدة لا تأتي هنا من التيار النفعي المعروف إنما تأتي من التميّز الذي يبدو واضحاً في كل المجموعة، بحيث تدرك من القصة الأولى رغبة هذا القاص في طرح ذاته في قصصه، خالصة من التأثيرات الخارجية، وبعيدة عن تيار الاستغراق في الدارج الشائع، إن لغة إبراهيم عاصي وقضاياه من أهم ما يميزه ويفرده بين كتاب القصة القصيرة».

٢ ـ رغم ما في أسلوبه من السهولة والبساطة، فإن فيه ملامح التعبير الموحي الذي يعطي للحدث والعبارة بعداً وعمقاً أكبر من المدلول اللغوي أو الواقعي. وحيث كان في كثير من قصصه يرتفع بالعبارة البسيطة العامية إلى التعبير الفصيح السهل، مع الإيحاء بالبعد الاجتماعي أو السياسي المطلوب، على بساطته.

٣ ـ إن الكاتب يتمتع بحاسة ناقدة ذكية، ويبدو هذا في اختيار الشرائح الحياتية من المجتمع والمدرسة، والريف و. . . . و. . . . ويصورها بريشته وبأسلوبه من خلال الحدث الموحي، يحمّلها سمة الواقع والرمز معاً لتوحي بمساحات أوسع، وأبعاد أكثر، ومدلولات أعمق ولا سيما في «مركباتنا، وزيجة فندقية».

٤ ـ ومن مميزاته أنه التزم بالواقعية الصادقة، واختار الموضوعات التي تحز في أكبادنا، وتذيب كياننا، لهذا سيعطيه القارىء حسه وذهنه وبذلك استطاع الكاتب أن يشدنا إلى قصصه، مهما قيل عن الأسلوب والعبارة،

وكان في واقعيته جريئاً يعبر عن صدق وتصور متميز، ولكنه مع ذلك ابتعد كل البعد عن الأسلوب التقليدي المباشر، وعن النبرة الخطابية المباشرة إلا في القليل النادر، وكانت لقطاته الموحية الذكية هي التي تثير في ذهن القارىء ما أراد أن يرمز له أو يوحي به. لا سيما عندما يكثّف الضوء حول نقطة ما حتى تحفر في ذات القارىء مسارب يصل منها إلى ما حول الحديث وما يرمز إليه.

ولم يكن انفعالياً في تصويره للواقع مهما كانت مساحة الهموم التي يود إبرازهـا، بل تركنا نحن القراء ننفعل من الصورة والحدث، وتكثيف الضوء، وكأنه وقف بعيداً ليقول لنا: هذه نفوسكم فانظروا كيف يعبث الفشل والقهر والتفاهة والفوضى والتخلف والتقليد والعجز والجبن في حياتكم.

لقد صور حقائق المجتمع المعاصر التي تصرخ في وجوه الأدعياء الكاذبين قائلة: إنكم شياطين العصر فاتركوا الإنسان يعود إلى فطرته السوية إلى منهج الله، وتنادي الناس المؤمنين أن ينهضوا بالمسؤولية وحمل الأمانة.

٥ ـ ومع ذلك، فإننا ـ مع كل حبنا لكاتبنا ـ ننتظر منه أن يعيد مرات ومرات صياغة بعض المقاطع أو القصص لتكون في مستوى الجيد منها، لتبقى أبصارنا مشدودة إليه مع فكرنا وإحساسنا، لقد كان في أسلوب القصص تفاوت ظاهر، وهذا الذي نود أن يتلافاه في غيرها من القصص.

ولعله في مثل هذه المجموعة، وفي مثل هذه الثقة والموهبة يشق طريق القصة الإسلامية المعاصرة، القصة المتميزة التي لا تلتفت إلى ما خلّفه العصر من أساليب، وإن كانت لا تغفل عن الاستفادة منه، والحق سوف يفرض نفسه عاجلاً أو آجلاً، ولكنه يحتاج إلى المجاهدين، وربما إلى شهـداء.

وكاتبنا بتميُّزه في الأسلوب والشخصية، وفي انطلاقه من التصور الإسلامي الواضح ومعرفته لمهمة الأدب الإسلامي سوف يسهم ـ إن شاء الله ـ في بناء القصة الإسلامية والأدب الإسلامي المعاصر.

وأقول بدون تردد: إنه يخط طريقاً جديداً، يبدو هنا بسيطاً، ولكنه لم ينتقل خطوة إلا بعد أن ترك أثراً ومعلماً[1].

ولعلنا نجد فيه وبأمثاله أصالة الفن الإسلامي، لا نقلد أحداً، لا نمزج بين الأدب الإسلامي وغيره كما فعل السحار وغيره.

ولكن وأنا أقرأ هذه المجموعة كنت أحس بالغصة الذابحة مما ظهر في المجموعة من أخطاء وإهمال أثناء الطبع، لا سيما وأن الطباعة فن، والنشر تدخل فيه مجموعة من العوامل، قد يقتل بعضها الكتاب مهما كان رائعاً، وقد يدفعه للانتشار مهما كان تافهاً[2].

أفلا يصحو الناشرون على ما ينتظرهم عند الله من حساب، وهم يسهمون في محاربة الكتاب الإسلامي والكتّاب الإسلاميين مع أن عناوين هذه الدور من العناوين الإسلامية الكبيرة؟.

* * *

(١) إن إبراهيم عاصي يمثل حقاً ـ في ما نشره من قصص ومقالات ـ الأدب الإسلامي في تصوره للحياة، والتزامه الصحيح، ولهذا يصلح أن يكون نموذجاً واقعياً عن الأدب الإسلامي.

(٢) كان ذلك في الطبعة الأولى.

مع المجموعة القصصية «ميلاد جديد» للأخت الكاتبة حنان لحام

في كل يوم يبرز دليل جديد على أصالة الأدب الإسلامي وقوة تياره، وليس هذا غريباً، لأنه بعض ثمار هذه العقيدة الراسخة التي أنبتت في الحياة أشجاراً ظليلة، وثماراً طيبة، وكان من ثمارها دول وحضارات، وعلوم وآداب، وفنون، وصناعات. وكان من ثمارها رجال ظلوا على مرور الأيام غرة الدهر، في كل مناحي الحياة الإنسانية.

وإن المسلم اليوم يعيش الصحوة الإسلامية في كافة شؤون الحياة في بقاع العالم المختلفة، ويحس أن هذه الصحوة أتت بعدما أفرغ الغرب والشرق ما في جعبتهما من عقائد وأفكار وأعمال، فما كان منها إلا حروب وبؤس وقلق. كان منها تشتت وضياع في النفوس الإنسانية، وفي المجتمعات البشرية، حتى لم يعد ما يشغل الإنسان إلا البحث عن مكمن الداء، والانشغال في تلمّس الدواء، هنا في ديار الإسلام، وهناك في ديار الغرب يبحث الإنسان عن الطريق الذي يخلصه من شرور المذاهب الهدامة، المذاهب المادية: من رأسمالية وماركسية، والمذاهب الوجودية، والجنسية وكل النزعات الطائشة التي دمرت سلام الإنسان وطمأنينته الغالية.

واستطاع كثير من البائسين أن يجدوا الطريق، عندما أخلصوا النية، وفتحوا عيونهم وهم يراقبون الحياة فلم يجدوا الطمأنينة الحقيقية إلا في نفس المسلم.

نعم لم يعثروا على الطمأنينة إلا في نفس المسلم وضميره، رغم ما ينزل به من البؤس والكوارث، ورغم ما يحيط به من المخاطر ورغم ما تسلط عليه من المؤامرات.

وجدوا الطمأنينة في نفس المؤمن وهو في سجنه، تلسعه سياط الوحوش الآدمية التي راحت تنتقم من الحياة كلها وتكوي جلود هؤلاء بالنار، والأنياب، والسياط، وألوان التعذيب التي عجزت وحوش الدنيا عن معرفة شيء منها.

ولذلك تخلى كثير من أبناء الغرب عن ضياعهم، وجاؤوا ليتفيئوا ظلال الإسلام، جاؤوا ليتخلصوا من القلق، بل وصمموا على كسر القيود المادية مهما غلت التضحيات.

قلت: وفي كل يوم يبرز دليل جديد على أصالة الأدب الإسلامي وقوة تياره... بل وهذا البروز الواضح لتيار الأدب الإسلامي جانب من جوانب الصحوة الإسلامية التي أشرت إليها، ومؤشر مهم من مؤشراتها، وصوت قوي يعبر عن تصميمها من ناحية، ونقاوتها من ناحية أخرى.

وهذه النقاوة تعني: تميزها عن التجارب الأخرى التي تترنّح ذات اليمين وذات الشمال، ولا تكاد تستقر حتى تضمحل، ولا تكاد تطفو حتى تغرق، ولا تكاد تلمع حتى تظلم وتحترق، وهكذا، لكن التجربة الإسلامية في هذا الجانب المشرق منها ـ وأعني به الأدب ـ يعبر عن هذا التميز والاطمئنان، ويعبر عن استواء ناضج وحرارة متقدة لا تخبو نارها ولا يضعف نورها.

وهذا التميز يعطيها صفة الواقعية الحقيقية، لا الواقعية المتخيَّلة أو المفتعلة أو الممسوخة، لأن هذه التجربة تعبر عن الحقيقة الإنسانية بفطرتها السليمة لا تماري في الحق، ولا تغش في القول، ولا تستغل في الظروف، بل تأخذ الواقع لتعبر عنه من تصور الفطرة الإنسانية البريئة من التشويه

والعبث، المتطلعة إلى المستقبل بشوق وأمل، المتصلة بالخالق عز وجل، والواثقة بأنه المدبر القدير، والعزيز الرحيم، والسميع البصير.

وأفضل عندي أن أرى تجربة متواضعة من هذه التجارب الأدبية وقد برىء صاحبها من الخلفيات المعقدة، ورمى إلى بعيد كل المواضعات والمصطلحات، والقيود ـ وليست القواعد ـ التي اصطنعتها يد الشياطين وهم يمسكون بقيادة الأدب العالمي، من أن أرى تجربة لها من الشهرة والميزات ما لها، ولكنها لا تستطيع التخلص من أثر هؤلاء الشياطين على الأدب. وهذه مهمة لا يقوى عليها إلا المتميزون الناضجون، الذين وضحت عندهم حقائق التصور الإسلامي، ووضحت عندهم حقائق الحياة المعاصرة فلم تلتبس عليهم المظاهر المختلفة ولم تبهرهم الأصباغ والتعقيدات والادعاءات الشيطانية.

مهمة شاقة أمام المسلم في هذا العصر بشكل عام، ومهمة شاقة أمام الأديب المسلم بشكل خاص، الذي يقف وسط جبال من الركام المتماوج، الأحمر والأسود والأصفر، والرمادي، ومن كل الألوان، مما يدعو إلى الحيرة، ويغري بالوهم. ركام من قواعد الفن الغربي.

ولكن التميز الحقيقي هو الذي يجعله لا يأبه بهذا كله، ولا يقبل أن يقف على أية ناحية من هذه النواحي المصطنعة، أو يستند إلى أي مفهوم من هذه المفاهيم المتسحدثة ما دام قادراً على صياغة مفاهيمه، وإقامة قواعده بيديه على هدى رب العالمين.

ولا يفعل ذلك عن جهل أو غرور، وإنما يفعل ذلك وهو مستوعب لكل ما أفرزته المدنيات الحديثة من ألوان أدبية، وأفكار مختلفة.

* * *

ولعلي أسهبت في الحديث، وأبعدت في المرمى، حتى غاب عن أنظار القارىء ما أريده مباشرة، أو أتحدث عنه في هذه المجموعة القصصية

التي صدرت في دمشق تحت عنوان «ميلاد جديد» للكاتبة المسلمة «حنان لحام».

ولكن هذه المقدمة الطويلة التي أسهبت فيها ضرورية، لعلاقتها بمضمون هذه المجموعة وأسلوبها، وسأحاول توضيح ذلك فيما سيأتي إن شاء الله.

المجموعة تتألف من أربع قصص قصيرة هي على التوالي:

(أوهن البيوت ـ بيت العنكبوت ـ طوبى للغرباء ـ ذات الدين). مع إهداء لطيف «إلى شباب العالم الإسلامي الذي بدأ يستفيق من إغفاءته وأخذ يتلفت محاولاً كشف الطريق الصحيحة بين المتاهات... إنه يخطو إلى الأمام...».

فهي منذ البداية تحدد من خلال الإهداء هدفها، ويتعرف القارىء سمة تميزها عن غيرها، فهي لا تكتب عابثة، ولا تلهو ضجرة، ولا تعبر عن أزمة من أزمات الجنس، أو نزوة من نزواته، ولا تنفث من وسوسة الشيطان، إنما تلمح الوجوه المشرقة، الوجوه الباسمة التي بدأت تستفيق، فتمد لهم يداً حانية، جادة، واثقة، تضع لهم بعض الصوى، وتنقل لهم بعض التجربة ليكون زاداً، فيأنسون، وتزداد ثقتهم، وتقوى عزيمتهم، ويعرفون أن في العالم غيرهم من بدأ يخطو بعزم نحو مجتمع الإسلام، مجتمع الإنسانية النظيف.

والأخت الكاتبة ـ وفقها الله إلى كل خير ـ تختار حقلاً مهماً من حقول الحياة الشاسعة لترينا فيه لونين من الثمار، هذا الحقل هو العائلة، ومن خلال هذا الإطار تنقل لنا صور الغرس الماكر لشياطين الإنس والجن، والذي كانت ثماره هذه المدنية الفاجرة، القلقة الممزقة البائسة.

وفي الحقل ذاته تعطينا صورة الرياض النضرة، بمائها السلسبيل

وثمارها الحلوة، برياحينها، بالقلوب المتفتحة بالإخلاص والتقوى والحب، وبالنفوس التي نمت من سقيا الإيمان والإسلام، حتى كانت ثمارها يانعة حلوة طاهرة.

تتركنا نمشي على أرض الواقع خطوة خطوة فنرى في القصة الأولى «أوهن البيوت» تجربة أم سالم، وولدها سالم في البحث عن الفتاة الزوجة، ذات الإغراء، والمال، لتناسب المهندس الذكي، ولكن التجربة تنتهي بأن يطلق الشاب سالم المتدين، الذي حلم بالفتاة الغنوج، زوجته الحلوة الناعمة، وكان يحلم بأن يجعل منها الزوجة التقية فإذا به: «طلقها، لم يعد يستطيع احتمالها، كانت تشتمه وتلعن الحياة معه، وتتذمر من تفكيره ومنظره الرجعي، وتتهمه بالبخل لأنه لا يصحبها إلى الحفلات، ولا يشبع نهمها، إلى الملابس والمجوهرات، حتى عيل صبره، وثارت ثائرته، فطردها من البيت مطلقة».

هكذا يفشل سالم في زواجه، لأنه ترك سنة الله، واختار على غير هدى رسول الله ﷺ وكانت النتيجة:

شاب محطم غارق في الديون والهموم.

ـ طفل بريء شريد... وفتاة خاضت زواجاً فاشلاً لتخرج منه مطلقة معقدة، وأموال ضاعت هباء، وآلام تجرعتها الأسرتان.

وتتساءل الكاتبة: أكل هذا بسبب فقدان الحظ؟

لا... لا... بل إنها بعض ثمار البيت الذين لم يُبْن على التقوى.

﴿أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان، خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم؟ والله لا يهدي القوم الظالمين﴾.

وهكذا كانت التجربة نتيجة من نتائج الخروج عن الطريق الإسلامي في

اختيار الزوجة «فاظفر بذات الدين تربت يداك» والعزوف عن المرأة المسلمة المتدينة إلى ذات الجمال والمال.

* * *

وفي قصتها الثانية «بيت العنكبوت» تعطينا صورة أخرى، للبيت المسلم عندما لا نحسن اختيار الزوج المسلم لبناتنا، ونخضع لمقاييس الجاهلية من قبول ابن العائلة، أو حامل الشهادة، أو صاحب المال أو القريب، أو لغير هذه الأسباب، وإهمال جانب الدين والخلق، إنها تجربة البنت «هالة» التي خضعت لإرادة أهلها وقبلت الزواج من الشاب العصري فإذا بها تعود بعد صبر مضن عشر سنوات إلى أهلها: «لقد خرجتُ من عندكم وحدي، وهنا أنا أعود إليكم بأربعة أطفال مشتتين. لقد دفعت ثمن استسلامي لإرادتكم غالياً... عشر سنوات من عمري قضيتها بين شد وجذب، تقطعت أنفاسي. وكنت أخفي آلامي عنكم، لأني آثرت معالجة مشاكلي وحدي، كنت أحاول طاعة الله في ظل رجل يريد عصيان الله... كنت على يقين من أن دين الله هو سعادة الدنيا والآخرة، وكان هو بعيداً يريد الانطلاق وراء الهوى والشيطان...».

وبعد هذا الصبر، والصراع «وبكلمات حادة قذرة طردني كأي خادمة حقيرة».

«لقد انزاح هذا الكابوس عن كاهلي أخيراً بعد أن دفعت الثمن غالياً... عشر سنوات من الشقاء المرير، وأربعة أطفال من كبدي سيأخذهم بعد انقضاء فترة الحضانة، ليرديهم في طريق الشيطان ويقذف بهم في الجحيم، إنه بيت أسس على الشقاء والهواء، بدون دعائم **﴿كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون﴾**.

* * *

أما القصة الثالثة «طوبى للغرباء» وهي تجربة طفلة بريئة، استعصت

فطرتها السليمة على الانهيار في البهرج المزيف، واهتدت إلى الله: «كل هذا وأنا بعيدة عنك يا إلّهي... أسمع اسمك يتردد على الألسنة لفظاً لا تدرك النفوس معناه، ولا تنعكس ظلاله على الوجوه والسمات، فلم أعرفك، ثم عرفتك يا إلّهي، عرفتك في عبادك المؤمنين...».

وابتدأت المعركة بينها وبين أسرتها التي لا تعرف غير العبث، ولا تؤمن إلا بملذات الدنيا، ولا ترى من المستقبل إلا غاية يومها.

وتزداد البنت المؤمنة «ندى» صلابة وقوة، وتزداد ثقتها بالله عز وجل، وتتضاءل أمامها الصعاب، فتصبر على الأذى، والعبث، والسخرية، وتلتزم بالسلوك الإسلامي: في الملبس والمأكل، وشتى تصرفاتها، ويزداد الضجر عند الأم، والحيرة عند الأب، الاستهزاء من الإخوة، حتى يضطرب البيت، ولكنها تصبح أمام أسرتها مناراً، يرون من خلالها حقيقة الطهر والاستقامة، يرون حقيقة المسلم الواثق المطمئن، أصبحت في بيتها حجة على الأب والأم والإخوة، يصارعونها ولكنهم أيضاً ينظرون إليها - في داخلهم - بإكبار، ويقارنون بينها وبين واقعهم فتبدو لهم كالنجمة اللامعة الطاهرة في الليل المظلم، وتبدو لهم نفوسهم عارية أمامها، وتبدو لهم أعمالهم مستقبحة، وانتصرت «ندى» وكانت لبيتها قطرات ندى تنعش الظمأ.

«عاشت «ندى» كقطرة من الندى تغسل قلوب المخطئين، وتجلو صدأ نفوسهم، وقلبها مليء بالأمل أن ترى الناس وقد ساروا فى درب الإنسان الذي أراده الله. عاشت حياة الغربة وسط الأسرة العاصية حتى انتصرت، وحققت معنى الغربة الحقيقية، التي لا تنعزل عن الحياة، وإنما تصمد وتشع وتعطي القدوة والمثل حتى، يقف معها آخرون، وتظلل الحياة طهارة الإسلام».

«طوبى للغرباء... الذي يصلحون ما أفسده الناس من سنتي».

* * *

والقصة الأخيرة «ذات الدين» وهي أطول القصص إذ استغرقت ٤٠ صفحة من (ص ٦٠ ـ ١٠٠) بينما لم تستغرق القصص السابقة إلا (٥٩) صفحة مع الإهداء والمقدمة وتنقل لنا صورتين عن أسرتين: أسرة مسلمة مؤمنة من صالح وزوجته وطفله وطفلته، وأسرة أخرى من هذه الأسر العصرية الضائعة مؤلفة من جمال وزوجته وأولاده.

ومن خلال أحداث القصة تعطينا الأخت الكتابة عن حياة صالح الموظف الجاد المخلص الدؤوب، الذي يؤدي عمله بإتقان، ويتعامل مع الناس بخلق حسن: ويتعاون مع الآخرين فيمد يده للمستخدم «أبو سعيد» المسكين الفقير، صاحب العائلة المنكوبة بالعقوق والمرض والمخاوف .

ثم تعطينا صورة عن حياة جمال: المدير، الذي يأتي متأخراً، يتناول فطوره في الوظيفة، يذهب وقته بالضجر والتململ، يكبل حركاته التعب والملل، تلاحقه أشباح البيت بواقعه البائس، وكذلك سهراته الطويلة هرباً من هذا الواقع.

تتطور الأحداث من خلال الحوار بين الرجلين، ثم المكالمة الهاتفية بين جمال وزوجته، وتضيف تفاصيل جديدة لإيضاح الصورتين المتناقضتين: عن صالح المسلم فكراً وسلوكاً، وجمال الضائع القلق المشتت الهارب من الحياة إلى أحضان الشيطان.

وبالحديث الحاني والنفس المؤمنة التي تنفتح لتسع أحزان الناس وتمسح دموعهم وبؤسهم، وتداوي جراحهم، يستطيع صالح أن يجر جمال إلى البوح بأحزانه وواقعه، ويصل الحديث إلى تحديد السبب:

«أتراك يا أخي قد أسأت الاختيار عند الزواج؟».

وتبدو مقاييس العصر الخائب في جواب جمال: «بل إنها جميلة، ومن عائلة معروفة في البلد، ومتعلمة. . . معها الشهادة الثانوية».

قال صالح: «ألم تسأل يا صاحبي عن الدين والأخلاق؟».

وهنا تبدو الصورة المزيفة التي يفهمها الناس عن التدين، أو يشيعونها عن المتدينين: «وهل المتدينة أفضل حالاً؟... إن كثيراً من أصحابي في المقهى هاربون من زوجاتهم المتدينات...».

ويصحح صالح هذا المفهوم الخاطىء:

«إنني أتحدث عن المرأة المؤمنة... تلك التي تضع نصب عينيها رضى الله، فتتقي الله في زوجها وأولادها، أتحدث عن تلك التي وصفها رسول الله ﷺ بأنها: إن نظرت إليها سرتك بحسن استقبالها وحفاوتها، تتودد إليك وتعرف كيف ترضيك، وإن غبت عنها فأنت في قلبها تصون سمعتك وتستر عيوبك، فأنت آمن على عرضك، مطمئن على حسن تدبير بيتك ومالك».

وتمضي أحداث القصة لتعطينا صورة عن تفكير الفتاة المؤمنة الحقيقية، وسلوكها في رضائها بالزوج المؤمن، في عدم اكتراثها بالمال، في تيسيرها للزواج، في حسن إدارتها للبيت، وحسن معاشرتها للزوج، وحسن تربيتها للأولاد، وصدق وفائها، وَبساطة حياتها، مع الطمأنينة والسعادة الحقيقية التي تنعم بها الأسرة جميعاً ما دامت تتعلق برب العالمين.

ثم تعطي صورة عن الأسرة المنكوبة بمقاييس العصر وأذواقه، فالمرأة للمظاهر والحفلات، لا تعرف لبيتها قيمة، ولا تدرك لزوجها حقاً، ولا ترى لأولادها واجباً، تبذر من أجل الظهور، تغرق في المعصية لتكون عصرية، تخضع لمقاييس المدنية وقوانينها لتكون تقدمية، وتغرق بالبؤس الذي يأكل لُبَّها، ويحرق بيتها، ويجعل زوجها بعيداً هارباً من بيته، والأولاد عصاة يتصارعون.

صورتان متناقضتان لهما دلالات كثيرة: عن البيت المسلم، والبيت

الجاهلي العصري، عن المرأة المتدينة الخلوقة، والزوج المتدين الخلوق، وعن المرأة العاصية بنت الأزياء، والرقص، والزوج العاصي ابن المدنية الحيوانية.

* * *

وبعد هذا الاستعراض لا بد من ملاحظات نتوقف عندها من خلال هذه المجموعة:

أهم هذه الملاحظات أنها استندت في هذه القصص إلى أمرين مهمين أساسيين، أعتبرهما من أهم العناصر التي ينبغي أن يقوم على أساسها الأدب الإسلامي الحديث، وقد أشرت إليها في كتابات سابقة منذ سنوات وهما: التصور الإسلامي الواضح بشكل عام وعن الجانب الذي يتناوله الأديب بشكل خاص، حتى لا يسقط في المقاييس العصرية المجافية، البعيدة عن الإسلام دون أن يدري مهما كان بريقها وشهرتها..

وثانيهما: الواقعية الحقيقية، وليست الواقعية المزيفة أو المنحرفة أو المبتورة أو المشوهة.

الواقعية التي تأخذ شريحة من الحياة كما هي بفطرتها السليمة، ومن جوانبها المختلفة، حتى لا ننظر إليها من زاوية واحدة، تتضخم وتتضخم لتوحي بأن الحياة بهذا الشكل أو ذاك كما يفعل كتاب الجنس وغيرهم. وهاتان الحقيقتان بدتا واضحتين في هذه المجموعة، فالأخت الكاتبة حددت موضوعها ـ وهو من أهم الموضوعات المنسية على أرض الواقع وأرض الفكر ـ ونظرت إليه من خلال التصور الإسلامي للحياة العائلية وللرجل والمرأة، وللبيت المسلم، ولفطرة الجنسين، ولدورهما.

وهذا التصور واضح وبسيط، ولسنا بحاجة فيه إلى إضافات هذا العصر وتفسيراته وحواشيه، لسنا بحاجة للانطلاق في هذا التصور من ظروف ومواقع انفعالية تجعلنا نتساهل هنا، ونقف على الحد الفاصل هناك لكي لا نتهم بالجمود والرجعية.

تجربة الحياة المعاصرة تصرخ وتصرخ وتستغيث أن كل ما حدث في الأسرة خاطىء، أفسد الحياة، ونزع الطمأنينة، ومزق الأسرة، وكان بمؤامرة الشياطين من اليهود وغيرهم، فلماذا لا نصدع بالحق كما أنزل، ولدينا النصوص الواضحة البسيطة، التي تفهمها كل العقول بدون واسطة.

وبدا تصورها من خلال هذه النصوص التي جاءت ضمن نسيج القصة مضيئاً غير مفتعل، وهذا الذي أردت أن أقوله عن التصور.

أما الواقعية فقد بدت من اختيارها لشرائح من الحياة العائلية: من جانب الرجل، والمرأة والانعكاسات التي تنتج عن العلاقات بينهما أو عن غياب أحدهما، أو غيابهما، وعن النتائج التي تنتج من توفرهما وكانت هذه الواقعية بسيطة ومحببة.

وأنا أعلم أن بعض الناس سوف يجدون في تقويمي لهذا المجموعة نوعاً من الغلو، ولكن الأهم عندي أن مثل هذه الأعمال الأدبية تنبع من الذات المسلمة الصافية، التي لا تريد أن تخضع لقواعد اصطلحت عليها الجاهليات لتميز بين الأعمال الأدبية. ولذلك نجد أريج القرآن الكريم وحديث رسول الله ﷺ قد شاع في هذ القصص[1]. إن هذه القصص تخاطب الأسرة مباشرة، وتخاطب البنت في صباها المبكر والشاب في مراهقته، والأسرة في بدء تكوينها، وتقدم لهم هذه الصورة الواضحة المحببة.

وإذا كانت بعض الملاحظات قد تخللت هذه القصص حتى جعلت الكاتبة تسهب أحياناً في بعض التفاصيل، أو تطيل في المناجاة أو حديث

---

(١) إننا بحاجة أن نستبدل المصطلحات الغربية ـ النصرانية والماركسية واليهودية وغيرها ـ بالمصطلحات القرآنية الإسلامية عموماً، لأن هذه المصطلحات ستعطي إيحاءات خيِّرة بدلاً من تلك، ولا يصلح أبداً أن نمضي وراء المصطلحات الدخيلة ونحن نتحدث باسم الأدب الإسلامي.

النفس، أو تقترب في أسلوبها من النثرية العادية، لكن هذه الملاحظات لا تنقص من قيمة المجموعة.

والأخت الكاتبة التي بدأت عطاءها، سيقوى قلمها ويشتد عوده، وستقدم للمكتبة الإسلامية مجموعات أخرى أكثر نضوجاً، وأكثر سمواً ـ إن شاء الله ـ ما دامت تمتلك الموهبة الممتازة، وتعرف كيف تختار موضوعاتها وتكتب بهذا الأسلوب الشاعري الذي يمتاز بحرارة الصدق، وبساطة التركيب، ووضوح الكلمة والمعنى.

وهي بشارة خير إن شاء الله في درب الأدب الإسلامي.

وضمن الصحوة الإسلامية.

* * *

القصة الإسلامية بين الالتزام والإعجاب
عرض وتحليل قصة
«القابضون على الجمر» و «رحلة إلى الله»

«الذعر والإرهاب مثل الغازات السامة، تنتشر مع الهواء وتدفعه الرياح في كل مكان».

هذه العبارة التي وردت في نهاية قصة «القابضون على الجمر» تصلح لتفسير كثير من نواحي الحياة المعاصرة.

المجتمع بكل ما فيه من قيم وعادات وأخلاق، وعلاقات، يفسده جو الإرهاب والذعر حتى يؤول إلى صورة غريبة وكريهة ومشوهة.

الأفكار والمثل يجري عليها ذلك التغيير، وقد تنقلب رأساً على عقب، وترفع التفاهات والسخافات والأباطيل لتغدو شعارات ومُثلاً.

الأدب يتلوَّن بفعل هذه الرياح الخبيثة، ويصطبغ بأصباغ المشوهين، ونتن المدنية المعاصرة، وتصبح له ألوان القلق، والمسخ، وقيم الحيوانات المستأنسة، والفجور الذي يقف على رأس الناس.

ومن خلال هذه الصورة ينهض المسلم ليرفع راية التوحيد، واضحة صافية فتبدو غريبة، ويخلص الإنسان من التشوية والعبودية.

ينهض وحده معتمداً على الخالق البارىء العليم، ليقول للناس: هذا هو الطريق الحق وهذا هو الإنسان المكرم وسط الأنقاض المشوهة.

ويبدو المسلم غريباً في كل شيء: في مظهره، ومشاعره، وأفكاره ومثله وسلوكه، لكنه مع ذلك يظل صابراً قوياً ثابتاً في وجه الإعصار، صلباً أمام ريح الإغراء، مضيئاً وسط الظلام، بل يظل يعطي ويعطي لأنه الإنسان الوحيد الذي يملك الحرية ويملك الحب والخير.

ولكن أعداء الإنسان، أعداء الإسلام يرون في هذا خطراً عليهم، فينقضون على المسلم بكل وحشية، ويتهمونه بكل نقيصة، ويمنعونه من أبسط الحقوق.

يبدو لي في أحيان كثيرة أن هذه الصورة لا تختلف إلا قليلاً بين مكان وآخر وبين مجال وثان.

فهي هي في مجال الاعتقاد كما هي في مجال الفكر، كما هي في مجال العمل، كما هي في مجال السلوك وكما هي في مجال التعليم، وكما هي في مجال الأدب، عند المرأة وعند الرجل سواء. لذلك عندما ننظر إلى الصورة المأمولة لأدبنا الإسلامي الحديث نحسُّ بالغربة ذاتها التي نراها وسط المجتمع، وفي مجال الفكر أو السلوك، أو الإعلام والصحافة، أو الدولة والإدارة.

الأدب الحديث صورة من هذا العصر، ونتيجة من نتائج التدمير المركز الذي حرصت عليه اليهودية عبر قرون.

إنه يعطينا شريحة واضحة عن مأساة العصر الذي عاثت فيه أيادي يهود تخريباً وإفساداً وتقطيعاً.

لقد أقامت أصنافاً في كل مكان، وخلقت من الأوهام أبطالاً، ومن التشويه والمسوخ معبودات شتى، حتى أَلِفَها الناس، وعبدوها بدون تفكير.

وفي الأدب الحديث ـ كما في غيره ـ يبدو هذا الأمر واضحاً.

وضعوا له قواعد وأصولاً تتناسب مع الفلسفات المادية، والمجتمعات

المشوهة، والأخلاق المتفسخة، ورفعوا هذا، وخفضوا ذاك، أظهروا لوناً وأبعدوا آخر، وهكذا ربَّوا أذواقنا، وملؤوا أفكارنا، وعودوا أبصارنا وأسماعنا على أشكالهم وألحانهم وألوانهم وأفكارهم.

الموسيقى في الكلمة والعبارة والبيت هي الموسيقى التي يريدون.

الرقة والجمال والإيحاء في العبارة التي يريدون والصورة التي تعجبهم.

والسؤال: كيف يمكن أن نخلص أفكارنا وأحاسيسنا وأذواقنا مما ترسب فيها لتعود إلى طهارة الفطرة، وجمال الطبيعة الصافية بعيداً عن التزييف والتعقيد؟

كيف نتخلص من تأثير العصر بما فيه من أضواء لنختار الأحسن، ونتعرف إلى الجيد وننتقي الأحلى بدون تقييد أو تأثير.

كيف نتخلص من نتن العصر لتعود إلينا الأذواق، والأحاسيس الصحيحة؟

إن ذلك يحتاج إلى وضوح في التصور، وصدق في الإيمان، وإخلاص في العطاء، وصبر في البناء، وتجرد في العطاء.

وإن ذلك يحتاج إلى الرجال المؤمنين، الذين عاشوا كتاب الله فكراً وقلباً وسلوكاً، الرجال الأوفياء الذين عرفوا سبيل الحق جيداً والتزموا به صابرين.

الرجال الأذكياء، الذين عرفوا الإيمان خالصاً، وملكوا الموهبة القادرة التي لم تتفسخ بأنواء العصر، وأصباغ المادة.

* * *

في قصة «القابضون على الجمر» لمؤلفها «محمد أنور رياض»[1] مثل حي لما نريد من الأدب الإسلامي، بل هي قصة من القصص الإسلامية النادرة التي تشد قارئها إلى هذا اللون الجديد، من الأدب الإسلامي الملتزم، الأدب الذي يصور ما يصور من خلال رؤية إسلامية واضحة.

ومن البدء يحس القارىء أن كاتب القصة لا يكتب للاستمتاع أو التسلية، ولا يتدسس إلى القارىء من خلال الصور المثيرة، والمواقف المفتعلة، إنه يكتب بشخصية متميزة واحدة، لا تخضع لمقاييس المجتمع لأنها مقاييس الجاهلية التي تتعارض مع الفطرة، بل تعلن بوضوح ووعي أنها غريبة عن المجتمع الحديث، وأنها تلتزم بالإسلام عقيدة ومنهجاً وسلوكاً.

والقصة كما يقول عنها الكاتب في المقدمة المقتضبة «التعبير الحقيقي الذي يصل إليه ـ القارىء ـ حاملاً صوت القابضين على الجمر طوال عشرين سنة مضت».

ورغم ازدحام الأحداث أحياناً فإن الكاتب ظل محافظاً على تميُّزه ووضوحه، وواعياً لهدفه وغايته حتى النهاية، لقد سبر غور المجتمع في مصر، وأعطى من خلاله صورة مشرقة حقيقية للصفوة التي لم يجرفها التيار، ولم يذيبها الطغيان والفساد، بل ظلت مُسْتَعْلِيَةً صابرة تقبض على دينها كما يقبض الإنسان على الجمر، مع أن الناس من حولها يتهافتون على المتاع، ويسقطون في الضياع. والقصة تذكرني بقصة أخرى، تتفق معها في الموضوع والهدف، وقد تتفق في كثير من الصور التي اختارها الكاتبان لتكون مسرحاً للأحداث، وهذه القصة هي: «رحلة إلى الله» للدكتور «نجيب الكيلاني».

ومع أن الدكتور الكيلاني يمتاز بالسلاسة والعذوبة، ويملك موهبة القصاص، فإن الفارق بين القصتين كبير.

---

(١) الطبعة الثانية ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧ م، عن دار الاعتصام.

قصة «القابضون على الجمر» قصة إسلامية ملتزمة، تمثل الأدب الإسلامي بكل تصوره وأبعاده وكاتبها لا يفرط في جزئية من جزئياتها حتى لا يخرج عن مسار الأدب الإسلامي الواضح، ولا يحاول أن يماري أحداً، أو يخفف من عمق الهوة التي تفصل بين الواقع والحقيقة، ولم يساير الأوضاع أو ينسى جوهر الحقيقة تحت متطلبات الفن، أو باسم اللباقة أو أي وضع من أوضاع المجتمع المنحرفة. وأعترفُ أنه حافظ على مفهوم الإسلام وحدوده، إلا مرة واحدة عندما التقى بطل القصة «علي» مع «فوزية» ثم بعد تبليغها مهمتها قال: «صافحها مودعاً...»[1]. ومهما تكن الظروف والمبررات فإن حدود أي أمر في الإسلام: فكري أو أدبي أو تربوي أو سلوكي.. يبقى في حدود الشريعة، وهنا ما زالت فوزية أجنبية عنه فلا يجوز لبطله أن يصافحها أو يخلو بها.

أما غير هذه الجزئية فإن الكاتب استطاع أن يسلط الضوء على واقع المجتمع وأن ينتقي منه شرائح دالة تبرز حقيقته الصارخة باحتكامها إلى الهوى ومجانبتها لشرع الله في كل شأن.

لقد انتقل من المعتقلات والسجون، وإلى الجامعة ـ والأسرة، والمصنع، والشركات والفنون والسياسة، وإلى كثير من النواحي، ومن خلال هذه الجولات لم يفلت منه الخط الواضح الذي يربط الأحداث، ولم يبتعد عن الهدف الذي يريده من القصة.

كان ـ علي ـ بطل القصة متميزاً في تفكيره، وسلوكه، ملتزماً بإسلامه عقيدة وعملاً، لا يبتغي غير مرضاة الله عز وجل في كل أحواله، وهذا الذي رأيناه من بطل القصة واضحاً، نيراً، مشرقاً، يذكرنا بالمجاهدين الأولين، ويقرب إلينا صورة الشهداء الصادقين، لا سيما عندما كان في السجن الحربي

---

(١) ص ٢٥٩، من القصة.

تحت سياط الجلادين من الوحوش البشرية، وبرزت صورة المسلم الداعية في صلابته، وصبره، ووعيه وثقته المطلقة برب العالمين، ونظرته المتفائلة للحياة وهو في ظلمات العذاب.

وبرزت صورة الطغاة من الجاحدين والباغين والمنافقين الذين يسخرهم الشيطان لحرب دين الله والدعاة إلى الله ـ عز وجل ـ بما تحوي نفوسهم من جهالة وبغي وحقد، وبما تحمل من تناقضات وآثام.

وكذلك برزت النفس الإنسانية بفطرتها السليمة التي يحاول الطغاة إفسادها وتزويرها، كي تضيء وسط الظلام حينما تبرق لها بارقة من أمل، ويندُّ عنها الطيب والخير.

وكذلك برزت صورة المجتمع الذي استذلَّه الطغاة واستخف به الجبارون فأطاع وانخذل عن الحق، فأضاع نفسه وغده في الدنيا والآخرة، وأفسد الحياة والعباد، وكان ذلك في الجامعة والشركة وكل مكان.

لقد مر البطل أمام الامتحانات القاسية في السجن والتعذيب، ثم في الجامعة والإغراءات الجنسية والمادية، ثم في التهديدات والمطاردات المخيفة ثم في الشركة وما فيها من مؤامرات وفساد.

كل ذلك ضمن خط واضح لأحداث القصة، وتحليل واع من خلال حديث النفس وتداعي الأفكار التي اختارها الكاتب أسلوباً له في هذه القصة. وكذلك كانت بطلته «فوزية» التي تحولت من حياة الضياع والحيوانية إلى الحياة الإنسانية الكريمة، تبدلت قيمها كما تبدل سلوكها، وتبدلت آمالها كما تبدلت نظرتها للواقع، ولم تعد المتعة والشهرة، والمال والمظهر هي شأنها الذي تهتم به، بل أصبح الإسلام، والدعوة، ومرضاة الله ـ عز وجل ـ هو شأنها وغايتها مهما كانت النتائج.

قال علي: «لقد كنتِ تتحرَّقين شوقاً إلى العمل في سبيل الله ـ ولكن

عليك أن تفهمي أنه بقدر ما تقومين من عمل نبيل بقدر ما يغضبون منك. . . عليك بالحذر الشديد والأخذ بوسائل الحيطة. . . وإلاَّ».

هكذا يتطور واقع المرأة من فتاة الجامعة التي يقول عنها بينه وبين نفسه: «كلهم مثلك يا آنسة؟ شكلها كله مزيف، الوجه تداخلت فيه الألوان الغربية. . . والشعر. . . الله أعلم بأصله. . . ربما كان يخص إحدى الفتيات في أستراليا؟ والملابس من النوع الذي يسمونه. . . . «مستورد». . . و . . . . . »[1].

ولكن صورة الرجل الإنسان ـ المسلم الذي أعطى بصدق مثالاً حياً عن واقع الحلم الإنساني عن البشرية هي صورة بطل القصة علي، لقد رأت فوزية في ـ علي ـ صورة متميزة، جعلها تتغير، لقد كان بالنسبة لها ضوءاً أنار لها واقعها، وسبر أغوارها، فتقززت مما كانت فيه من زيف وخداع، من مسخ للإنسانية، وتزوير لكل شيء، فراحت تنجذب إلى الضوء وهي لا تعرف سر الانجذاب، كانت فطرتها التي تفتحت عندما أبصرت واقعاً بشرياً حقيقياً تعبر عن الفطرة الإنسانية السليمة تدفعها نحو علي، بل نحو الإسلام، وأصغت لأول مرة إلى الحقيقة: «اقرئي السيرة النبوية. . . . فلا يؤثر في الإنسان إلا نموذج الإسلام الكامل وقد تجسد في سيرة النبي ﷺ وأصحابه. . . وطبعاً يهمك أن تعرفي كيف ارتقى الإسلام بالمرأة، وحافظ على كرامتها، هناك كتب كثيرة، المهم أن تبدئي، وأنا عندي كتاب مناسب، وسأحضره غداً»[2].

وهذه هي الفكرة الأساسية التي تدور حولها القصة، لا بد من نموذج حي للمسلم لكي يؤثر في الواقع أكثر من تأثير الحديث والبيان، والإسلام هكذا يحتاج إلى من يحمله من الدعاة الصادقين، الذين يتمثل بهم الإسلام

---

(١) القابضون على الجمر، ص ٣١.

(٢) المصدر السابق ص ٥٧.

سلوكاً وحياة، ويعيشون فيه وله حقاً، في أي مكان، وسط الجاهلية، وحينها سوف تجد الفطرة موئلها الآمن، وتعود إلى هذا الظل الرضي، وإلى هذه الصورة الواقعية الماثلة.

وعندما أعادت له الكتاب، كانت تلبس بدلة واسعة تستر كل جسمها، على رأسها طرحة من قماش جميل، أحاطت بوجهها.

قال علي وهو يشير إلى ملابسها: كنت تظنين أن ذلك قيداً وأنه مستحيل، وعودة إلى عصر الجواري...

ـ بالعكس... العري هو الذي يعود بالأنثى إلى عصر الجواري..[1].

هكذا تأخذ المرأة دورها، ويتحدد سلوكها الإسلامي النظيف من خلال القصة حتى تشارك بدورها الخاص في أمور الدعوة، فتنقل المساعدات إلى أسر المسجونين والشهداء.

وهنا لا بد من العودة إلى قصة «رحلة إلى الله» لنلاحظ الفروق بين القصتين إذا أخذنا المرأة في هذه القصة، بسلوكها، وأفكارها، وتصوراتها عن الحياة، نلاحظ أنها المرأة المصرية العادية مع بعض التعديلات التي جعلتها تنقم على الطغيان وتستقذر الفساد، لكنها تبقى هي هي في خروجها على كثير من حدود الشرع، واختلاطها بالرجال، وإيمانها بالحرية كما يفهمها الغربيون، وحبها للانطلاق حيث لا ترى فرقاً بينها وبين الرجل.

إنها في قصة «رحلة إلى الله» امرأة مُعْجبة فكرياً بالإسلام، ومشفقة على المظلومين من الدعاة، ومندفعة الانتقام من الجلادين الذين وصلت مخالبهم إلى لحمها وشرفها، إنها مسلمة بالضرورة، والمصلحة.

---

(١) ص ٧٦.

وهذه الميزة تسيطر على القصة كلها، فأبطال القصة لا يتميزون بالسلوك وإنما يعملون بالفكر، وربما نلمح كثيراً من التناقض بين شخصية من شخصيات القصة أو كلها وهي تتحدث عن الإسلام، وبين سلوكها الواقعي، وحياتها الاجتماعية. وأبطال هذه القصة بشكل عام يتميزون برؤية أكثر وضوحاً من رؤية بقية الناس، ويؤمنون بأن الإسلام هو الأفضل، ويسهمون في معونة المظلومين من المعتقلين، ويتعاطفون مع الدعاة إلى الإسلام، لكنهم لا يلزمون أنفسهم بالإسلام سلوكاً وحياة.

لذلك فإنهم يفتقدون سمات الشخصية المسلمة المتكاملة المتميزة وتبقى نظرتهم إلى المجتمع متآلفة مع أعراف هذا المجتمع وعاداته مهما كانت بواعثها. ونظرتهم إلى ما حدث لرجال الدعوة، وحرب الطغاة للإسلام والمسلمين على أنها أزمة طارئة لا بد أن تزول، لذا نرى الكاتب يقول على لسان عبد الله والد بطلة القصة نبيلة: «اهدئي يا امرأة، فإن ما يحدث اليوم خلل طارىء لا دوام لشيء إلا لوجه الله، الحاكم القوي يقوى ويتمرد ويفرض سلطانه مؤمناً أن ذلك هو الصواب، لكنه ينسى أن سنة الحياة تجري عليه، وأنه سيشيخ ويموت وينسى أن الصواب ليس حكراً على فرد»[1].

بل ويرى أن مظاهر التقدم المادي في الغرب هي الحضارة، وهذه هي سمات شخصيات القصة، فها هي «نبيلة» بطلة القصة تسافر إلى هنا وهناك وتلتقي بالرجال، وتختلط دون أن يبرز عليها أية سمة إسلامية غير محاربتها للطغيان وفرارها من خطيبها المتوحش الطاغية، ها هي تقول عندما تصل إلى تركيا:

«أنا هنا أتجول في أنحاء العالم المتحضر، وأرى كيف يعيش الإنسان في أغلب المدن التي أزورها، وهو يستمتع بالحرية، وينعم بالحب والصفاء»[2].

---

(١) رحلة إلى الله، ٢٩٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٣١٤.

تقول ذلك عن تركيا التي امتصت الماسونية كل خير فيها، وأمعنت في إفسادها حتى تفسخت الحياة، وأضحت شكلاً مشوهاً، لا هو بالغربي، ولا بالشرقي. وحينما تنتقل إلى بيروت لا تخفي إعجابها بالمدينة وما فيها، ثم تتراجع قليلاً فتقول: «وانبهرت نبيلة بجو الحرية في مجالات الكتابة والحوار والندوات في بيروت»[1].

ونظرته إلى المجتمع أنه مجتمع سليم إلى حد كبير، وإنما الخلل والانحراف في الحكم، ولهذا نراه يقبل أية صورة من صور النقمة على الحاكم باسم الحرية، وتحت هذا الشعار كان يلتقي الوفدي بالمسلم، وبغيره من الناقمين، ويختلط الرجال بالنساء.

إن صورة الأبطال في القصة كانوا من الإخوان المسلمين في السجون، ولكنهم في الخارج يمكن أن يكونوا من أي لون وفكرة، تجمعهم رابطة الوطنية، وحبهم للحرية، ومحاربتهم للطغيان، ويؤمنون بالإسلام ولكن تحت مظلة مصر.

إن إيمانهم بالإسلام إيمان المعجب بفكرة، والمعجب ببطولات الذين يحملون هذه الفكرة ويدعون لها، وليس إيمان الداعية الذي لا يفرق بين طغيان وطغيان، ولا يقبل أمراً يعصي فيه رب العالمين، والذي يبرز إيمانه بسلوكه، والتزامه بشرع الله وفي كل شؤونه.

فالقصة «رحلة إلى الله» تمثل جيلاً من محبي الإسلام الذين اختلطوا بالدعاة، والذين تجمعوا باسم الدعوة، منهم الصادق الواعي الذي زادته المحنة ثباتاً وتبصراً فخرج من السجن وقد تعمق إيمانه، وزاد يقينه، وقويت عزيمته، وعرف أن كل وضع لا يحكم بالإسلام، لا بد وأن يأخذ لوناً من ألوان الجاهلية، وأن الدعوة إلى الله ينبغي أن يحملها المخلصون الذين تبرؤوا من كل عبودية لغير الله ورفضوا كل ولاء لغيره سبحانه وتعالى.

---

(١) ص ٣١٥.

ومنهم من ضعف عن ملاقاة المحنة فركض إلى الطغاة يقدم لهم الخدمات ويبطش بالإخوة القدامى، ويتسابق مع غيره للنيل من المسلمين والإسلام.

ومنهم من انكفأ على نفسه ورأى أنه لا بد من المهادنة، ويكفي أن يصلح الإنسان نفسه ويدعو غيره بالكلمة الطيبة اللينة، وأن لا يجرح أسماع الشاردين عن الله ـ عز وجل ـ حتى لا ينفروا عن سماع كلمة الله.

وكأن هذه القصة تأخذ السبيل الأخير، تدعو إلى الإسلام ولكنها لا تتخلص من أوزار الباطل في مجال السلوك الفردي، والأوضاع الاجتماعية. إنها تريد من المسلم أن يكون مسلماً عصرياً، مسلماً بالفكر. أما السلوك فهذا شأن خاص.

والقصة الثانية (القابضون على الجمر) فهي تمثل الجيل الثاني الذي تألق في المحنة الأولى وازداد إصراراً وثباتاً على الدعوة، وعرف أن الجاهلية تظلل أوضاع الناس، لذلك نرى هذه القصة تمثل الفئة الصابرة الصادقة التي تنظر إلى المجتمع من خلال الإسلام فقط، لا تقبل مهادنة، ولا يهمها أن يرضى الحاكم أو يرضى الناس، المجتمع كله يخضع للنظام الجاهلي، لذلك علينا أن نتعامل معه من هذه النقطة، يجب أن نشده إلينا كدعاة، ولا يكون ذلك إلا من خلال القدوة، الإنسان المكرم الذي يعطي من سلوكه وتصرفاته ما يثير أشواق الإنسان، وما يحرك فيه بقايا إنسانيته، وينقذ فيه بقايا فطرته السليمة، وهذا ما كان.

بقي أن نسجل للقصة (رحلة إلى الله) ذلك الأسلوب الممتع السهل، والسرد المشوق للأحداث المترابطة، والوصف الآسر للشخصيات، الذي تتصف به أكثر قصص الدكتور نجيب كيلاني.

وكذلك فإن أسلوب الغوص إلى ما في داخل النفس والذي يسمونه (تيار الوعي الداخلي) (المنولوج الداخلي) هو الذي تتميز به قصة القابضون

على الجمر، ولعله الأسلوب الذي مكن الكاتب من تشريح المجتمع، وإلقاء الأضواء على الأحداث، وتصوير الجوانب المختلفة للشخصيات. ولقد كان موفقاً اتسم في كثير من فصوله بالعمق والدقة، واستطاع أن يبرز الفكرة من خلال الحدث.

وفي النهاية نرى أن قصة (القابضون على الجمر) رغم كل الذي أبرزته ما زالت تصور المرحلة التي انتهت من حياة الدعوة، التي تخلصها القصة بهذه العبارة على لسان علي: «لا يجب أن تزلزلنا الحوادث، وتخرجنا عن التفكير السليم... نحن ـ أساساً ـ نريد مجتمعاً مسلماً، والمجتمع المسلم لا يقوم إلا بالاقتناع والحجة والبرهان، ولم يلجأ الرسول ﷺ إلى السلاح إلا حينما أقام الدولة الإسلامية الأولى وبدأ يدافع عنها، وقتل عبد الناصر أوغيره لن يغير شيئاً، لقد دب العفن والفساد في كل نواحي الحياة، وليس أمامنا بديل سوى خطوتنا المتئدة في التربية وتعليم الإسلام، ودعوة من نتوسم فيهم الخير».

فهل يا ترى تصدق هذه النظرة على واقع المسلمين اليوم، وهل يمكن أن تنطبق المرحلة المكية التي كانت يتقابل فيها المسلمون مع المشركين الصرحاء، مع واقع المسلمين اليوم أم أن الآية الكريمة كانت قاطعة في مثل هذا التفكير ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً**﴾.

إن الوقائع التي نعيشها هنا وهناك، تشير إلى أن الدعوة الإسلامية لا بد وأن تعود لتقوِّم طريقها، وأن الجهاد في سبيل الله من الأمور التي افترضها الله عز وجل وأن هذا لا يتعارض مع التربية المتأنية والدعوة إلى الله بالموعظة الحسنة. وأن المسلم ـ دوماً ـ أحرص الناس على صيانة الحياة من

---

(١) ص ٢٧٣.

العبث، وإيثار الخير في كل طريق. إنه الإنسان الذي يحقق الخير والسلام في الحياة.

إن هاتين القصتين طرحتا أفكاراً كثيرة، وكانت قصة «القابضون على الجمر» أكثر التزاماً بحرارة الرؤية الإسلامية المتكاملة، وصورة الدعاة إلى الله، التي تقول للناس: هؤلاء هم الدعاة إلى الله -إنهم متميزون-، صرحاء في الإيمان صادقون في الالتزام، قدوة في العمل والسلوك، لا يخافون غير الله عز وجل.

وبمثل هذا فليبدأ طريق الأدب الإسلامي.

* * *